حرية الفكر
وأبطالها في التاريخ

سلامة موسى

حرية الفكر وأبطالها في التاريخ

حرية الفكر وأبطالها في التاريخ

تأليف
سلامة موسى

هنداوي

حرية الفكر وأبطالها في التاريخ

سلامة موسى

رقم إيداع ١٣٨٥٢ / ٢٠١٤
تدمك: ٩ ٩٧٥ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: إيهاب سالم.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2015 Hindawi Foundation for Education and Culture.
All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

التسامح ٧
المقدمة ١٣

الجزء الأول: حرية الفكر في العصور القديمة ١٧
أول القيود ١٩
الإغريق والحرية الفكرية ٢٣
المسيحية والحرية الفكرية ٢٩
آخر التسامح: يوليان وهيباطية ٣٥
النزاع بين البابوية والقومية ٣٩
المانوية ٤٣
مقام الخلافة في الإسلام ٤٧
التسامح في الإسلام ٥١
ابن حنبل وَخَلْق القرآن ٥٩
الإسلام والفنون والعلوم ٦٣
الغزالي والحرية الفكرية ٦٥
حرية التصوف وقتل الحلاج ٦٩
الثورة على الإسلام ٧٣
اضطهاد الفلاسفة ٧٩
قصة القهوة ٨٥
الجمهور والاضطهاد ٩١

الجزء الثاني: حرية الفكر في العصور الحديثة ٩٧
إرهاصات النهضة الأوروبية ٩٩
النهضة الأوروبية ١٠٣
المطبعة ١٠٥
البروتستانتية ١٠٧
أرازموس ١٠٩
رابليه ١١١
سوزيني ١١٣
مونتين ١١٧
برونو ١١٩
الدين شريعة ١٢٣
قتال الكاثوليك والبروتستانت ١٢٧
جاليل ١٢٩
نزعة الشك ١٣٣
جلالة الملك فولتير ١٣٩
الثورة الفرنسية ١٤٥
توم بين ١٤٩
القرن التاسع عشر ١٥١

الجزء الثالث: في تبرير الحرية الفكرية ١٥٥
في تبرير الحرية الفكرية ١٥٧

التسامح

كان أبناء القرية[1] يعيشون هانئين في وادي الجهل السعيد، وحولهم من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب؛ قد ارتفعت هضاب التلال الدائمة.

وكان مجرى المعرفة الصغير يسير هونًا في أُخدود عميق بالٍ، وكان يتبدد عندما يبلغ البطائح والمناقع.

ولم يكن شيئًا يذكر إذا قيس إلى الأنهار، ولكنه كان يكفي القرويين حاجاتهم الوضيعة.

وفي المساء عندما كانوا يسقون ماشيتهم، ويملئون جرارهم؛ كانوا يقنعون بالجلوس، ويتطعمون الحياة.

وكان «الكبار العارفون» يحضرون من زواياهم المعتمة، حيث كانوا يقضون نهارهم في التأمُّل في صفحات خفية من كتاب قديم.

وكانوا يغمغمون بكلمات غريبة لأحفادهم، أولئك الذين كانوا يؤثرون على غمغمتهم اللعب بالحصى المجلوب من بلاد بعيدة.

ولم تكن هذه الكلمات — في كثير من الأوقات — واضحة.

ولكن كان قد كتبها قبل ألف عام شعبٌ مجهول؛ ولذلك كانت هذه الكلمات مقدسة.

ولأن الناس في وادي الجهل كانوا يقدسون كل شيء قديم فأولئك الذين كانوا يتجرءون على معارضة حكمة الآباء كان جميع الناس الأبرار يتجنبونهم.

وهكذا عاشوا في سلام.

---

[1] قصةٌ رمزية.

وكان الخوف يلازمهم، ويتساءلون على الدوام: ماذا يحدث إذا نحن حُرمنا من الاشتراك في خيرات الحقل؟

وكانت تتلى عليهم في همس — عندما يخيِّم الظلام في أزقة القرية الصغيرة — قصصٌ غامضةُ المعنى عن الرجال والنساء، الذين تجرءوا على أن يشكوا ويسألوا.

وكان يقال: إنهم ذهبوا ثم لم يعودوا.

وكان يقال: إن عددًا قليلًا حاولوا أن يتسلقوا الهضبة التي تحجب عنهم الشمس.

ولكن هذه عظامهم البيضاء مطروحة عند سفح الهضبة.

وجاءت السنون ومرت السنون.

وعاش أبناء القرية في وادي الجهل الأمين.

ثم من الظلام أقبل إنسان.

وكانت أظافر يديه قد تمزقت.

وكانت قدماه ملفوفتين بالخرق، وهي حمراء قد تلطخت بالدم بعد مشاقِّ السير الطويل، ووقف على عتبة الباب لأقرب كوخ إليه وطرق الباب.

ثم أغمي عليه، فحملوه في ضوء شمعة مرتجف إلى سرير، وفي الصباح تعالم الناس كلهم في القرية «أنه قد عاد».

ووقف الجيران حوله وهم يهزون الرءوس، وكانوا يعرفون — من قديمٍ — أن هذه هي الخاتمة.

كانوا يعرفون أن الهزيمة والتسليم ينتظران أولئك الذين يتجرءون على الخروج عن سفح الجبل.

وفي إحدى زوايا القرية قعد «الكبار العارفون» يهزُّون رءُوسهم، وينطقون بكلمات من نار.

ولم يكونوا يميلون إلى القسوة، ولكن الناموس ناموس، ولقد خالف هذا الرجل، وأخطأ في معارضة رغبات هؤلاء «الكبار العارفين».

والآن يجب محاكمته عندما تبرأ جروحه.

وكانوا يرغبون في محاكمته باللين.

وكانوا يتذكرون عين أمه، وكان فيها لمعة غريبة كأنَّها تحترق، وتذكروا أيضًا المأساة التي وقعت لأبيه إذ ضلَّ في الصحراء قبل ثلاثين سنة.

ولكن النَّاموسَ هو النَّاموسُ، ويجب الخضوع له، وعلى «الكبار العارفين» ألا يفوتهم ذلك.

وحملوا هذا السائح إلى السوق، ووقف حوله النَّاس، وهم في صمت الوقار.

وكان لا يزال مضعضعًا، قد أضناه التعب والعطش، فأمره «الكبار» أن اقعدْ، فأبى.

وأمروه بأن يلزم الصمت، ولكنه تكلم.

ثم أدار ظهره إلى «الكبار» والتفت إلى أولئك الذين كانوا منذ قليل إخوانه.

فقال — وكأنه يتضرع إليهم: «أصغوا إليَّ، أصغوا إلي، وابتهجوا؛ لقد ذهبت إلى ما وراء الجبال، وها أنا ذا قد وافيتكم منها، ولقد وطئت قدماي أرضًا جديدة، وصافحت أيدي أناسًا آخرين، ورأت عيناي أشياء عجيبة.

إني حين كنت طفلًا كانت حديقتنا هي كل العالم الذي أعيش فيه.

وكان حول الحديقة من الشمال ومن الجنوب ومن الشرق ومن الغرب هضبات، قد قامت منذ بدء الزمن.

وكنت عندما أسأل أحدًا: ماذا وراء هذه الهضبات؟ كنت أُجاب بهز الرءُوس وبالصمت، وكنت إذا ألححت في السؤال أخذوني إلى العظام البيضاء، عظام أولئك الذين تجرءوا على تحدِّي الآلهة.

وكنت أصيح وأقول: هذا إفك؛ إن الآلهة تحب الشجعان، فكان «الكبار العارفون» يأتون إلي ويقرءون لي من الكتب المقدسة، وكانوا يقولون: إن كل شيء في السماء وفي الأرض مرسوم بالناموس، وإن هذا الوادي — بنص الناموس — لنا، نملكه ونعيش فيه. لنا حيوانه وزهره وثمره وسمكه، نفعل بها ما شئنا، أما الجبال فللآلهة، وما وراء الجبال يجب أن يبقى مجهولًا حتى آخر الزمان.

هكذا كانوا يقولون، وكان قولهم كذبًا، وقد كذبوا عليَّ كما يكذبون عليكم الآن.

إلا أني أقول لكم: إن في الجبال مروجًا، وهي مروج ممرعة كأحسن ما رأيتم، وهناك ناس من دمنا ولحمنا، وهناك مدنٌ تزهى بمجد آلاف السنين.

لقد عرفت الذي يؤدي بنا إلى وطن أفضلَ من وطننا هذا، ورأيت وعود الحياة السعيدة، فامشوا ورائي وأنا أقودكم؛ فإن الآلهة تبتسم هناك كما تبتسم هنا وفي كل مكان آخر.»

ثم سكت، فضج الواقفون وعجبوا.

وصاح «الكبار العارفون»: «زنديق، هذه زندقة ورجس، يجب أن يعاقب، لقد جُنَّ؛ إنه يحتقر الناموس الذي كُتب قبل ألف عامٍ، لقد استحق الموت.»

ثم تناولوا أحجارًا ثقيلة، وشدُّوا عليه رجمًا حتى قتلوه.

ثم أخذوا جثته فألقَوها عند سفح الجبل، وخلفوها هناك؛ كي تبقى نذيرًا يَحذره كل من يشك في حكمة القدماء.

وحدث بعد ذلك بقليل جفاف عظيم، فإن مجرى المعرفة الصغير جف، وماتت الماشية من العطش، وأمحلت الغلات في الحقول، وكانت هناك مجاعة عظيمة شملت وادي الجهل كله.

ومع ذلك فإن «الكبار العارفين» لم يفطنوا، فإنهم تنبئوا بانقشاع المحنة؛ لأنه هكذا وعدتهم كُتبهم المقدسة.

ثم هم أنفسهم لم يكونوا في حاجة إلى طعام كثير؛ إذ كانوا قد طعنوا في السن.

ووافى الشتاء، فهجر الناس القرية، وهلك نصف السكان؛ لقلة الطعام.

ولم يكن ثمَّ رجاء لأولئك الذين لم يموتوا إلا فيما وراء الجبال.

ولكن الناموس كان يقول: «لا» ويجب الخضوع للناموس.

وفي إحدى الليالي حدثت ثورة.

وابتعث اليأس الشجاعة في أولئك الذين كان الخوف قد أسكنهم، واحتج «الكبار العارفون» احتجاجًا ضعيفًا، فنحَّوهم عنهم، وشكا هؤلاء حظهم، وصاروا يندبون ولاء أبنائهم، ولكنهم عندما رأوا آخر مركبة تنقل آخر السكان وقفوها وركبوها، وشرع في المسير إلى المجاهل.

وكانت قد مضت الآن سنون عدة على رجم ذلك السائح الجريء، ولم يكن من الهيِّن أن يهتدوا إلى الطريق التي أخبرهم عنها.

فهلك منهم كثيرون جوعًا أو عطشًا قبل أن يجدوا أول معالم الطريق.

ومن هناك تمهَّدَت الطريق، وقلَّت مشاقها.

وكان ذلك المرجوم قد أعلم طريقًا لبني وطنه في وسط الغابات والصخور.

وأدت الطريق في النهاية إلى مروج نضرة.

وعندئذ أخذ الناس ينظر بعضهم إلى بعض وهم سكوت، وقالوا: «لقد كان على صواب وحق، وكان «الكبار العارفون» على خطأ وباطل.

لقد صدق وكذبوا.

إن عظامه بالية عند سفح الجبل، ولكن هؤلاء «الكبار» يقعدون الآن في مركباتنا، وينشدون أناشيدهم العتيقة.

إنه أنقذنا ونحن ذبحناه.

وإنا لَنأْسى على ما حدث، ولكنَّا ما كنا ندري ...»

ثم أطلقوا خيولهم وثيرانَهم في المراعي، وابتنَوا لأنفسهم منازل، وزرعوا الحقول، وعاشوا سعداء دهرًا طويلًا بعد ذلك.

وبعد سنين حاولوا أن يدفنوا ذلك المرجوم في البناء الشامخ الذي كان خاصًّا بسكنى «الكبار العارفين».

فسار موكب يحفه الوقار إلى ذلك الوطن المهجور، فلما بلغوا المكان الذي أُلقيت فيه جثته لم يجدوا رفاته هناك.

فإن واحدًا من بني آوى قد جرَّه إلى جحره.

فوضعوا عندئذ حجرًا صغيرًا في أول الطريق الذي هداهم، ونقشوا عليه اسم ذلك الرجل الذي تحدى قوى الظلام والجهل؛ حتى يفتح لقومه طريق الحرية، وقالوا في نقشهم: «إن الحلف قد أقام هذا الأثر؛ برهانًا على شكرانه.

وكما كان في البدء كذلك هو الآن، ولكنه سوف لا يكون كذلك المستقبل.»

مترجمة عن هندريك ويلم فان لون

المقدمة

لم نسمع قط أن إنسانًا تقدم للقتل راضيًا، أو كد نفسه حتى مات في سبيل أكلة شهية يشتهيها أو عقار يقتنيه، وإنما سمعنا أن ناسًا عديدين تقدموا للقتل من أجل عقيدة جديدة آمنوا بها، ولم يقرهم عليها الجمهور أو الحكومة، وسمعنا أيضًا عن ناس ضحَّوْا بأنفسهم في سبيل اكتشاف أو اختراع.

فما معنى ذلك؟ معناه أن شهوة التطور في نفوسنا أقوى جدًّا من شهوة الطعام أو اقتناء المال، وأن هذه الشهوة تبلغ من نفوسنا أننا نرضى بالقتل في سبيل إرضائها، وأننا لا نقوى على إنكارها وضبطها؛ فالحياة دأبها التحوُّل من أدنى إلى أعلى، والتجدد باكتساب عناصر مما حولها، وتنقية بعض ما فيها مما هي في غنًى عنه، ونقول بعبارة أخرى: إن من دأبها التطور، فإذا وجدت أن أنظمتنا الاجتماعية قد سدَّت عليها أبواب التطور فإنها لا تنفك تحاول فتحها، أو تموت دونها، راغبة فيما هو أرقى منها، والجمود هو طبيعة المؤسسات الاجتماعية، بينما التطور هو طبيعة الحياة، فإذا اتسعت الهوة بينهما عمدت الحياة إلى الخروج والثورة والتحطيم.

وهذا هو معنى استشهاد الأنبياء والعلماء والفلاسفة وغيرهم في سبيل آرائهم الجديدة التي ينشرونها على الناس، فسقراط يشرب السم راضيًا؛ لأنه يشعر أن شهوة التطور التي تنزع به إلى العلا أقوى من شهوة البقاء. والمسيحيون يرضون بأن تأكلهم السباع في ملاهي الرومانيين، ويؤْثرون هذا القتل المرعب على البقاء جامدين راضين بديانة الآباء. والعالم يقعد أمام بوتقته يحاول اكتشاف حقيقة علمية قد بصر بها قلبه، فيكدح راضيًا بالجهد والفقر والموت حتى يبلغها، وكل هؤلاء آلاتٌ تستعملهم الحياة لأغراضها العليا، وتحقق بهم ناموسها العظيم وهو التطور.

وليس الاضطهاد الذي أصاب حرية الفكر، والاستشهاد الذي رضي به الأحرار؛ سوى صراع اصطرع فيه الجمود والتطور، جمود القاعدة الاجتماعية مع تطور الحياة، والفوز على الدوام للتطور على الجمود.

وقد يظن القارئ أن المفكر ما دام يُفكر فقط يكون تفكيرًا حرًّا، لا يمكن أحدًا أن يدخل إلى ذهنه ويعوقه عن التفكير في أيَّة ناحية يريد، ولكن الواقع أن التفكير لا يكون حرًّا طليقًا حتى نستطيع البوح والإفضاء به إلى غيرنا؛ لأن الفكرة طاقة؛ أي قوة من قوى الذهن، لا تزال منحبسة شأنها شأنُ جميع القوى المنحبسة تعذب الذهن حتى تنصرف بالعمل.

والإنسان كالحيوان، طبع على أن لا يخطر بباله خاطر حتى ينصرف إلى عمل وحركة، وجهاز الحيوان العصبي لم يُخلق في الأصل إلا لخدمة حركات الجسم، وذهن الحيوان عاليًا كان أم دانيًا في سلم التطور هو جزء من هذا الجهاز؛ فالخواطرُ الذهنية هي قوًى عصبيةٌ، إذا حبسناها آلمتْنا وعذبتنا، وأحيانًا تؤدي إلى الهوس بل الجنون، وجنون العاشق الذي لا يجد في معشوقته تلبية لعواطفه يرجع إلى أن خواطر العشق قد انحبست في ذهنه لا تجد منصرفًا.

وكل منا يعرف أن في الإفضاء والبوح منفرجًا للصدور، وأن همومنا تخف إذا شاركنا غيرنا فيها، والخواطر العلمية أو الفلسفية تؤذي صاحبها وتعذبه إذا لم يجد لها منصرفًا بالبوح بها إلى الناس؛ لأنها تبقى في نفسه كالهم الرابض، لا يستريح منه حتى يفضي به إلى الناس. فحرية الفكر إذن حرية البوح بالقول.

ولكن التَّاريخ يثبت أن معظم الذين باحوا بما في صدورهم مما اعتقدوا حقيقة علمية أو فلسفية أو دينية؛ نالوا من الاضطهاد بالتعذيب أو الحبس أو القتل الشيءَ الكثير، الذي لم يخلُ منه قرن منذ أكثر من ألفي سنة، فما علة ذلك؟

العلة الأولى: أن الناس مطبوعون على الكسل والاستنامة إلى ما أَلِفُوه من العادات الفكرية والعملية، فالإنسان في أحوال معيشته لا يخترع كل يوم، وإنما يجري على عادة أمسه فيسهل عليه عمله، فإذا ابتدع أحدٌ بدعة جديدة في اللباس أو الطعام أو الغناء أو الشعائر الدينية، أو حتى الأُسلوب الكتابي؛ فإنه يصدمنا لأول وهلة، ويكلِّفنا تفكيرًا أو جهدًا كنا في غنًى عنه، لولا بدعته.

والعلة الثانية: أن المصلحة الماليةَ والمعاشية كثيرًا ما تكون متعلقةً بالعادات المعروفة، فتبديلها يضيع على بعض الطبقات هذه المصلحة، فالغنيُّ يكره الاشتراكية لمصلحة واضحة، والقاضي الذي يتناول من المال نحو ألف وخمسمائة جنيه كل عام يحكم بالسجن على الخطيب الاشتراكي، ويلذ له النطق بالحكم؛ لأنه لا يرى فيه خصمًا للعدالة فقط، بل خصمًا لشخصه أيضًا، فالاشتراكية بدعة تصطدم بمصالح الأغنياء؛ ولذلك ليس الناس أحرارًا في البوح بأفكارهم عنها الآن في معظم أقطار العالم.

وعلة ثالثة: للتعصب واضطهاد الأفكار الجديدة هي: الجهل؛ فإن الذي يجهل نظرية التطور، ويؤمن بأن أبا البشر آدم وأمهم حواء؛ يكره كل من يقول بهذه النظرية الملعونة، والذي يجهل اللغات الأوروبية من شيوخنا يكره كل مَنْ لا يقول بأن اللغة العربية أفصح اللغات وأشرفها، ولا يمنعه من الاضطهاد إلا عجزه.

وعلة رابعة: هي: الخوف؛ فإن العجوز مثلًا قد تؤمن بالأولياء والقديسين، وتتشفع بهم، ولا يمكن — وهي في هذه الحال — أن تطالعها بحرية المناقشة فيما يُعزى إلى هؤلاء الأشخاص من الكرامات؛ لأن خوفها يمنعها من أن تطلق لذهنها هذه الحرية، ومن هنا أيضًا تدرك علة تقييد الحرية مدة الحروب؛ لأن الخوف من العدو يزيد وساوس رجال الدولة.

وأحيانًا تجد هذه العلل الأربع مجموعة بعضها أو كلها في طائفة من الناس، فإذا كان للدولة دينٌ رسمي صار الطعن في الدين أو انتقادُه داعية إلى تألُّب طوائف عديدة للذب عنه، منهم العامة الذين يحثهم خوفهم من الدين على اضطهاد المنتقد، ومنهم الكهنة الذين يخشون على مصالحهم، ومنهم جميع أفراد الأُمة تقريبًا الذين يرون أن السير على سنن السلف أيسرُ على قلوبهم من ابتداع البدع؛ لأنه يجب ألا ننسى أن الجماعات بحكم بيئتها مطبوعة على الجمود.

ولكن البدع تفوز في النهاية؛ لأنها وإن كانت تبدأ مع قلة من الأُمة إلا أنها لِمَا فيها من ميزات تتغلب على العادات الموروثة، وكل تقدم للإنسان مصحوبٌ ببدعة، ولولا ذلك لَمَا تم اختراعٌ أو اكتشافٌ، وكلنا يتألم عند اصطناعنا بدعة جديدة لأول مرة، ولكن معرفتنا بفائدتها تجعلنا نرضى بهذا الألم، الذي يزول بالاعتياد والرياضة.

الجزء الأول

حرية الفكر في العصور القديمة

أول القيود

لَمَّا شرع الإنسان يخرج من الغابة، ويزاول الزراعة؛ أخذ يعتقد العقائد عن الأرض والسماء، وأصل الناس ومصيرهم، ودواعي الشؤم واليُمن، وجلب السعادة لنفسه والأذى لغيره، وكانت عقائده الأولى بعيدة عما نفهمه الآن من الدين؛ فنحن نفهم الآن من الدين أن الماء يطهر، وأنه لذلك سبيل الوضوء للمتدين، ولكنه كان يفهم أن الماء أصل النبات، وأنه غسول يغتسل به الجسم من الأقذار؛ أي أنه بدأ ينظر نظرًا علميًّا للأشياء، نظر الحس والمشاهدة.

فلما تقادم الزمن أخذ يتصوف في نظره، وينسب للأشياء المحسوسة أغراضًا أُخرى، فكان مثلًا يعتقد أنه إذا أكل الخنزير صار لحمُ هذا الخنزير في لحمه هو، فمن البديهيات أنه يصير هو نفسه خنزيرًا؛ فامتنع لذلك عن أكل الخنزير، وكان في نظره هذا عالمًا وإن كانت وسائل التحقيق لديه غاية في الضعف. ولكن جاء الخلف فتصوَّفوا، وحرَّموا الخنزير، وبنَوا تحريمهم على آراء دينية صوفية.

وكان عند الإنسان الأول — كما لا يزال للآن عند المتوحشين — جملة محرمات كلها «طَبُو Tabu»، فالخنزير «طبو» يجب ألا يُمس، وبعض الحيوان أو الطيور «طبو» يحرم قتلها وصيدها، وزوجة الرجل أو زوجاته حلال له «طبو» لغيره، أي حرام على هذا الغير أن يمسهن، وما زلنا نسمي النساء «حريمًا» أي يحرم على غير زوجهن أن ينظر إليهن؛ لأنهن «طبو» له.

والطبو أصنافٌ عديدة، ذكرنا منها مثال الخنزير الذي يجب ألا نأكله؛ لئلا يتجسم في جسمنا، فهو لذلك نجس، وقد يكون طائرًا تتوهم القبيلة أنه أبوها، فيجب ألا يُقْتَل؛ رعاية لأُبوَّته، فعندئذ يسمى «طوطمًا»، وقد يكون ملكًا للغير كالنساء يحرمن على غير زوجهن.

فالطبو هو أصل الآداب الأخلاقية، وهو أيضًا أول قيود الحرية الفكرية، وقد كان في الأصل يعبر عن نظر علميٍّ فج، لم ينضج، استحال لقلة وسائل التحقيق والعلم إلى عقيدة دينية، فلما ارتقت الأمم بعض الارتقاء، وصارت إلى طبقات؛ نشأت فيها طبقةُ الكهنة السحرة، الذين يعرفون الناس بأنواع الطبو، فزادت أنواع الطبو بذلك جمودًا وتعدُّدًا؛ لأنه انضاف إلى قوتها قوةُ مصالح الكهنة، ولا يزال في العقائد الدينية الفاشية الآن أنواعٌ جديدة من الطبو: فالبقرةُ في الهند لا تؤكل عند الهندوكيين، والخنزير كذلك عند اليهود.

وأول أنواع الطبو هو «الطوطم»؛ أي طائر أو حيوان أو شجرة يحرم على أفراد القبيلة أن يَمَسُّوها، أو أن ينظروها، أو أن يأكلوا شيئًا منها، وتعتقدُ القبيلةُ أن الطوطم هو أصلها الذي تنتمي إليه؛ فله لذلك حرمة. ثم يرتقي الطبو من ذلك إلى أن يصير نواهيَ أدبية، تنهى الناس عن بعض الأفعال، فوصايا موسى الصحية مثلًا هي أنواع من الطبو.

وقد يظن البعض أن المتوحش أكثر حرية منا، ولكن الواقع أنه مَحُوطٌ بأنواع مختلفة من الطبو تقيِّد فكرَه، وتمنعه من أن يصيد هذا الحيوان، ومن أن ينطق بهذه الكلمة، ومن أن ينظر إلى هذه الشجرة، وهلم جرًّا؛ وذلك لأنها كلها تقريبًا طبو.

وعند ظهور الآلهة وانتظام العبادة؛ ازداد الكهنة قوة، وجمدت نواهي الطبو، فتقيد فكر الإنسان. إنما يجب أن نذكر أن الآلهة القديمة لم تكن في قوة آلهة الأديان الحاضرة؛ لأنها لم تكن قادرة على كل شيء كما يعتقد الآن المسيحيُّ أو المسلم في إلهه، فكان بين الإنسان وبين ربه مجال للفكر في جملة موضوعات، لا يستطيع أهلُ الأديان الحاضرة أن يفكروا فيها ما لم يتناقضوا مع ما ذكرتْه الآلهة.

وخلاصة كلامنا هو:

(١) أن الإنسان القديم كالمتوحش الحديث، لم يكن حر الفكر؛ لأن نواهي الطبو كانت كثيرة.

(٢) أن الإنسان بدأ ينظر للأشياء التي حوله نظرًا علميًّا ساذجًا، ولكنه؛ لقلة وسائل التحقيق كان نظره فجًّا، فلَمَّا تقادم الزمن جمدت آراؤه العلمية فصارت عقائدَ دينية، فالماء في الأصل غسول يغسل به، فلما تَقادَم الزمن صار يُستعمل للطهور والوضوء.

(٣) كانت الآلهة القديمة غير قادرة على كل شيء، فكان في عجزها هذا بعض التيسير للحرية الفكرية، وعجزها هذا يرجع إلى نظر الإنسان العلمي؛ لأن كل إله قديم كان في الأصل شخصًا حيًّا، فلما مات بقي من حوله من الأحياء يعتقدون أنه حيٌّ غائب؛ لأنهم لم

يفهموا طبيعة الموت، فلم ينسبوا إليه القدرة على كل شيء؛ لأن هذه الصفة التي لا يمكن أن تُنْسَب إلى الأحياء لا يمكن أيضًا أن تُنْسَب إليهم بعد غيابهم فيما نفهمه الآن بأنه موت.

(٤) لَمَّا ارتقى الإنسان بعض الرقي خَفَّت سلطة الطبو، واستأثر الآلهة بالسلطة، واندمج ما تبقى من نواهي الطبو في الديانات الإلهية، فاتسعت بذلك الحرية الفكرية بعض الاتساع.

وقبل أن نختم هذا الفصل ينبغي أن نؤكد شيئين للقارئ، يجب عليه ملاحظتُهما في هذا الكتاب: أولهما أن النظر الديني كان في الأصل نظرًا علميًّا، لا شائبة فيه، يقبل الجدل والتمحيص، وأنه صار بعد ذلك نظرًا دينيًّا قائمًا على الجزم؛ لقلة وسائل التحقيق عند الإنسان الأول، ولأن طبقة من الناس رأتْ من مصلحتها أن تروِّج العقائد الدينية وتعيش منها؛ ولذلك كانت المعابدُ — قديمًا — أمكنةً لدراسة العلم، وكان الكاهن عالمًا.

والملاحظة الثانية: أن الدين في نفسه لا يُمكنه أن يضطهد العلم، وإنما الاضطهاد يرجع إلى الكهنة، ولكن الكهنة أنفسهم لا يمكنهم أن يضطهدوا أحدًا ما لم تكن السلطة في أيديهم، فالذي يقيِّد حرية الفكر، والذي اضطهد الناس؛ هي السلطة الحكومية، وما دام الدين بعيدًا عن الحكومة فإنه لا هو ولا كهنته يمكنهم أن يضطهدوا أحدًا.

أما إذا صارت الدولة والدين جسمًا واحدًا أمكن رجال الدين أن يضطهدوا من يشاءون، وأن يقيدوا الفكر كما يشاءون؛ فالاضطهاد الذي كابده الناس في الماضي من رجال الدين إنما كابدوه لأن هؤلاء الرجال كانوا قابضين على أَزِمَّة السلطة في الدولة، ونحن فيما يلي من فصولِ الكتاب إذا ذكرنا الاضطهاداتِ الدينيةَ لا نذكرها عيبًا على الدين عن ذاته، بل تقريرًا لِمَا يفعله الحاكمُ — متسلِّحًا بالدين.

ورجال الحكم أشغفُ بالدين، وأكثر استعمالًا له سلاحًا يرهب به الناس من رجال الدين بالحكم، بل ربما نزع رجل الدين إلى الزهد، ولكن رجل الدولة والحكومة يحتاج إلى الدين لكي يستطيع أن يخيف به العامة؛ لأن الدين يزيد سلطانه، فلا يُقصر على هذا العالم، بل يمتد إلى العالم الثاني؛ ولذلك نجد أن رجلًا مثل ميكافيلي يقول: إنه يجب على الأمير — أي: الحاكم — حماية الدين، ولو كان هو نفسه لا يؤمن به؛ لأن الدين يعاونه على حكم الجماهير، وعلى تثبيت سلطانه.

الإغريق والحرية الفكرية

كان الدين عند القدماء أمثال المصريين والكلدانيين مثوى علوم هذه الأمم، وكانوا قانعين به، يفسِّرون جميع الظواهر الكونية والطبيعية به، وكان عند هذه الأمم شيء كثير من العلوم والمعارف، ولكنهم لم يضعوها في مكان الاعتراض على الدين، فالبردي الذي يُنسب إلى الفرعون أهمس مثلًا يثبت أن المصريين عرفوا شيئًا عظيمًا في الرياضة قبل سنة ١٧٠٠ق.م، وكذلك الشهورُ القبطية تُثبت المدى العظيم الذي بلغوه في الفلك.

وكان في الفُرات مراصدُ في القرن الثامن قبل الميلاد، وقد عرف المصريون شيئًا كثيرًا عن التشريح وعن النباتات.

فالأُمم القديمة مارست العلوم، ولكنها لم تنزع نزعة علمية، ولم تحاول أن تفسر الظواهر الكونية والطبيعية بالعلم وحده دون الدين، وبعبارة أُخرى نقول: إن هذه الأمم لم تصنع «النظريات» العلمية، فكانت علومُهم أشبهَ شيء بعلوم القرون الوسطى في أوروبا: مجموعات من المعارف، ليس لها خُطة عامة، ولا غايةٌ نهائية، ولا بحث عن أول الكون ونهايته؛ ولذلك لم يَضطهد رجال الدين في هذه الأمم القديمة أحدًا.

أما الإغريق فيشذون عن الأمم القديمة بالنزعة العلمية، فهم لم يقتنعوا بجمع المعارف، بل وضعوا النظريات، والنظرية هي كل شيء وأهم شيء في العالم؛ لأن مداها أبعد من المعارف المجموعة، وهي في نفسها ضربٌ من الاقتصاد الذهني، يسهل جمع المعارف والاستغناء أحيانًا عن بعضها، فالإغريق أول أمة نزعت نزعة علمية، وقد ساعدها على ذلك شيئان:

أولهما: أنها لم تكن تؤمن كاليهود بإله واحد قادر على كل شيء؛ إذ كانت آلهتها عديدة، وكانت ذات صفات إنسانية، تنتصر وتنهزم وتعجز عن تحقيق أغراضها؛ ولذلك لم

يكن لها السلطان القاهر الذي كان لإله اليهود مثلًا على اليهود، فلم يجد العلم حرجًا من أن يفتئت أحيانًا على حقوق الآلهة، وإن كان قد ناله أيضًا شيء من الاضطهاد.

والثاني: أن ديانة الإغريق لم تَصِرْ في وقت ما شريعةً؛ وذلك لأنه إذا كان دينها شريعة التعامل فإنه عندئذ يصير جزءًا ملتحمًا بالحكومة وبالقضاء، فيدمغهما بالجمود، ويَحُول دون حرية الفكر ودون تطوُّر الأمة المدني؛ لأن التطور هو التبدُّل والتحول، والدين هو — غالبًا — التقاليد التي لا تتبدل ولا تتحول.

وأول ما نسمع عن النظر العلمي البحت في القرن السادس قبل الميلاد، ففي سنة ٦٤٦ مات «طاليس» وكان يقول بأن أصل العالم ماء، وصدم الدين لأول مرة بقوله: إن الآلهة لا شأن لها في خسوف القمر في حرب الليديين والفرس، وإن هذا الخسوف ظاهرة جوية مثل سائر الظواهر.

وفي سنة ٤٢٨ق.م، مات «أناجزاجوراس» وهو أول من نعرفه ممن اضطهدهم الدين، فإنه كان يعلِّم تلاميذه بأن الشمس ليست مركبة يركبها الآلهة كما تقول الديانة، بل هي قطعة من نار، وأن القمر يحتوي على جبال، وبحث في المادة الأولى التي يكون منها الكون بجميع أجرامه، وكاد يحدث نظرية التطور، فتألَّب عليه رجال الدين وحبسوه في أثينا، ثم نفوه منها فمات في آسيا الصغرى.

وهناك رجل آخر يُدْعَى «بروتاجوراس» مات سنة ٤١٥ق.م، وهو يُعتبر أول إنسان ذكره التاريخ صرح بكفره بالآلهة، فقد ذهب إلى أثينا، وأخذ ينشر بين الناس آراءَه الدهرية، وخلاصتُها أن الإنسان هو المقياس الأصلي لكل شيء في العالم، وأن العمر أقصر من أن ينفق في البحث عن وجود الآلهة أو عدمه، وأننا يجب أن نوجِّه نشاطنا إلى تحسين العالم وزيادة مُتَعِه.

وكانت أثينا تعاني عقابيل حرب طاحنة بينها وبين إسبارطة، فلم تكن في حال تسمح لها بإغضاب الآلهة، وعلى ذلك قُبض على بروتاجوراس وقُدم للمحاكمة.

ولكن هذا الكافر لم يكن يتطعم الاستشهاد في سبيل العلم والحرية، ففر من حبسه، ونجا بنفسه في سفينة تقصد إلى صقلية، وتحطمت السفينة وغرقت وغرق معها.

ومنذ ابتداء القرن الرابع قبل الميلادي نرى النزعة العملية تقوى في بيئة موافقة، يتخللها قليلٌ من الاضطهاد الديني، ففي سنة ٤٠٠ أو قريبًا منها نجد مؤلفًا — غير معروف اسمه لنا الآن — يؤلف كتابًا عن الفالج، فينكر فيه علاقة هذا المرض بالآلهة أو

بالأرواح النجسة، ويقول: إنه مثل سائر الأمراض «ينشأ من أشياء تدخل الجسم وتخرج منه، مثل البرد والشمس والرياح، وهي أشياء دائمة التغير، ولا تهدأ.»

وفي هذه السنة عينها أخذ «ديمقرايطس» يضع نظرية غايتها الاستغناء عن الآلهة في تفسير أصل الكون ونهايته، فرد المواد كلها إلى ذرات، وقال: إن العوالم تختلف؛ فهي دائمةُ النمو والفساد، ونحن الآن في عصر النظرية الذرية التي أحياها العلماء في القرن الماضي، ولم يذكر التاريخ أن أحدًا اضطهده لهذه الآراء.

وحول هذا الوقت نجد ثلاثة أشخاص لا يزال لأسمائهم روعةٌ وأثر في الثقافة الحاضرة، نعني بهم: سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس.

أما سقراط فيُمثِّل نوعًا من الانتكاس في النظر العلمي، فهو الأديب الذي يكاد يعلن كراهته للعلم، ومن أقواله: إنه من العبث «أن يعرف الإنسان المعارف لِذاتها»، وكان يقول أيضًا بخلود النفس، وإن «ضمير الإنسان الخفي هو معيار كل الأشياء، أو يجب أن يكون كذلك، وإن الآلهة لا تُقرر مصيرنا، وإنما هذا المصير في أيدينا.»

ثم كان يختصر الآلهة كلها في إله واحد غير منظور، ولم يكن في كل ما قاله سقراط ما يمكن أن يأخذه عليه مؤمنٌ، ولكن السياسة وَجَدَتْ سبيلًا إلى قتله عن طريق فلسفته؛ فإنه كان «معتدلًا» في وقت يتطلب الغلو، فقد كانت أثينا بين حزبين، حزب العظاميين وحزب العصاميين، وكان سقراط يتوسط بينهما، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؛ لأنه لم يكن يظن أن الخير كله في إحدى هاتين الفئتين، فلما انتصر العصاميون سنة ٤٠٣ق.م، رأى سقراط أنه لن يعامل بتسامح، وحضه أصدقاؤه على الفرار من أثينا فرفض، ولم تكن إلا أيام حتى عقد له مجلس مؤلف من ٥٠٠ قاض لمحاكمته على كفره، وقد دافع سقراط عن الحرية دفاعًا مجيدًا ما زلنا نحن في حاجة لأن نسمع مثله.

قال سقراط: «ليس على الأرض إنسان له الحق في أن يُمْلي على الآخر ما يجب أن يؤمن به، أو يَحرمه من حق التفكير كما يهوى»، وأيضًا: «ما دام الإنسان على وفاق مع ضميره فإنه يستطيع أن يستغني عن رضا أصدقائه، وأن يستغني عن المال وعن العائلة وعن البيت، ولكن بما أنه لا يُمكن أيَّ إنسان أن يصل إلى نتائج صحيحة بدون أن يفحص المسائل — ما لها وما عليها — فحصًا تامًّا فإنه يجب أن يترك الناس أحرارًا، لهم الحرية التامة في مناقشة جميع المسائل، بدون أن تتدخل الحكومة في مناقشتهم.»

وكانت حجج سقراط، في دفاعه عن نفسه ورَدِّ تهمة الكفر التي اتُّهم بها؛ قوية إلى حدٍّ أنْ خاطبه المجلس في الكف عن تعليم تلاميذه، بحيث إذا وعد وعدًا صادقًا بذلك فإن المجلس يعفو عنه، فكان جواب سقراط على هذه «التسوية»:

> كلا، ما دام ضميري — هذا الصوت الهادئ الصغير في قلبي — يأمرني بأن أسير، وأُعلِّم الناس طريق العقل الصحيح؛ فإني سأوالي تعليم الناس، وأصرح لهم بما في عقلي بدون اعتبار للنتائج.

ولم يكن بعد ذلك سوى الأمر بقتله، فقُتل وتجرع السم بين تلاميذه، ومات مرتاحَ الضمير هادئ النفس، وتفرَّق تلاميذُه بعد مقتله مرعوبين، ولكن لم تمض عشر سنوات حتى عادوا إلى روعهم، وعادوا يعلِّمون الناس فلسفته.

وقام بعد سقراط تلميذه وراويته أفلاطون، وقد وضع أفلاطون هذا أولَ طوبة معروفة في التاريخ، مثَّل فيها السعادة الإنسانية، في نظام عمراني يختلف عن النظام الذي كان يعيش فيه اختلاف الاشتراكية الروسية الآن عن نظامنا. ومع ذلك لم تضطهده حكومة الأثينيين. وكان أفلاطون صوفيًّا، بل هو أول الصوفيين يقول بأن شهادة الحس على الحقائق غيرُ صحيحة؛ لأنها دائمةُ التقلُّب، فمعرفة الحقائق يجب أن تصدر عن الفكر لا عن الحواس.

وقد اعتمد رجالُ الدين في القرون الوُسطى على مذهب أفلاطون هذا في مقاومتهم للعلم، وتنقُّص قيمة المذهب العلمي القائم على الحِسِّ والتجربة، وأنت عندما تقرأ كتابًا لأحد الصوفيين المسلمين والنصارى؛ تجده يعتمد الاعتمادَ كله على هذا المذهب، الذي يقول بأن ما نُدركه عن سبيل حواسنا ليس كل شيء، وإنما نُدركها بذهننا فقط.

وجاء بعد أفلاطون أرسطوطاليس معلم الإسكندر، ويمتاز أرسطوطاليس عن أفلاطون وسقراط بأنه عالم لا يشوبُ ذهنه شيء من الصوفية الأفلاطونية، بل هو أول من فصل الأدب من العلم عندما ألَّف كتاب «التاريخ الطبيعي» وتتلخَّص آراء أرسطوطاليس من حيث النظر العلمي فيما يلي:

(١) أن المادة دائمةٌ، غير مخلوقة، ولا تفنى.
(٢) أصل المادة أربعة عناصر، وهي: الماء والهواء والتراب والنار.
(٣) الأرض كرة وهي مركز الكون.
(٤) النجوم والكواكب تدور حول الأرض.
(٥) الكون محدود.

وكانت كل هذه الآراء تُعارض العقائد الدينية عند الإغريق، ومع ذلك لم يجد حرجًا في إذاعتها، بل كان هو يصرح بأن الآلهة لا تستطيع أن تخالف النواميس الطبيعية، وقد

كانت آراء أرسطوطاليس مادة الفلسفة والجدل نحو ألفي سنة عند العرب والإفرنج، ولكن روح أرسطوطاليس — وهي روح التجربة والاختبار الحسي — لم تَعُمَّ العالم الذهني في اليونان؛ فإن مدرسة الإسكندرية كانت تنزع نزعة علمية، ولكنها كانت نزعة نظرية غير قائمة على الاختبار والتجربة، وكان لأفلاطون أثرٌ كبير فيها.

فإننا إذا عزونا نظريات إقليدس وأرشميدس إلى روح أرسطوطاليس فإننا نجد روح أفلاطون قوية كل القوة في «فيلو» الفيلسوف اليهودي الإسكندري، الذي وُلد سنة ٢٠ق.م؛ فإنه اعتمد على فلسفة أفلاطون، وجعل الله مبدأً غيرَ محسوسٍ، لا يمكن أن يتسم بصفات، أو تُنسب إليه عواطفُ — على النحو الذي نراه مشروحًا في رسالة «حَيِّ بنِ يَقظان» لابن طفيل.

ولكن فلسفة أفلاطون كان من أثرها أنها أَكْبَرَت من شأن الروح، وصغَّرت من شأن الظواهر الحسية، فكانت بذلك أداةً تعاون الدينَ وتؤخر العلمَ؛ تعاون الأول بما تدعيه من الاستغناء عن الحواس في إدراك ماهية الروح أو الله، وتؤخر الثاني بتصغيرها شأنَ الحواس والتجارب، وهي لازمةٌ لتقدم العلوم.

فمنذ سنة ٤٠٠ق.م إلى سنة ١٦٠٠ بعد الميلاد كان العلماء عند العرب وعند الإفرنج ينزعون نزعة أفلاطون، ويَقبلون جميع آراء أرسطوطاليس دون أن ينزعوا نزعته، وقد نزع العرب نزعةً علمية في أواخر أيامهم، ولكن هذه النزعة لم يوحِها إليهم فلاسفةُ اليونان، وإنما كانت ترمي إلى البحث عن الذهب وإحالة العناصر، فهداهم هذا الخيالُ الكاذب إلى أن يعثروا في طريقهم على جملة أشياء ذات قيمة علمية. ولكنك إذا رجعت إلى الكتب الدينية والصوفية عند الإفرنج والعرب في القرون الوُسطى تجدها كلها ترجع إلى أفلاطون، فهذا الجدل الذي نراه في حقيقة الله والنفس يرجع إلى البذرة التي طرحها أفلاطون عندما فصل الذهن عن الحواس.

ولكن أفلاطون وأرسطوطاليس وفيلو الإسكندري وأرشميدس وإقليدس كلهم — وطائفة كبيرة أخرى — عاشوا في ظل الحرية الفكرية الإغريقية، ولم يكن يتحرج أحد منهم في إبداء رأيه، ولسنا ننسى أن أرسطوطاليس فَرَّ من أثينا عندما علم بموت الإسكندر، ولكن فراره كان قائمًا على الظروف السياسية، وربما خشي مع ذلك أن يتعلل عليه الأثينيون بعلل فلسفية، ولكن الروح السائدة في تاريخ الإغريق القدماء هي روح التسامح البالغ.

المسيحية والحرية الفكرية

سبق أن قلنا: إن الدين في ذاته لا يمكن أن يَضطهد، وإنما الذي يضطهد هو السلطة الممثَّلة في الدين أو المستعينة بالدين؛ فهناك طائفةٌ من الناس تضطهد الناس باسم الدين، وقد تكون هذه الطائفة من رجال السياسة أو من رجال الدين.

وأنت عندما تقرأ الإنجيل تجد أن المسيح لم يكن يقصد إلى وضع نظام كنسي جديد له كهنة وحكومةٌ، وأن المسيحيَّ الصادق في نظره هو الذي يدخل غرفته ويصلي لربه بعيدًا عن أعيُن الناس. والحق أن لهجة المسيح كلها تُوهم القارئ أنه كان يعتقد أن يوم القيامة قد أزف، فليس هناك ما يدعو إلى إيجاد نظام وحكومة، وإنما يجب على الناس أن يتهادنوا، ويعيشوا معًا بسلام هذا الوقت القصير، قبل أن ينشر الناس وينصب الميزان.

ولكن المسيحية نشأت في حضن اليهودية، وعاشت مدة غير قصيرة والمؤمنون بها يَعتبرون أنفسهم يهودًا لهم مذهبهم الخاص؛ ولذلك جرت المسيحية في نظامها على ما رأت من النظم اليهودية، فصار لها كهنة، وكان هؤلاء الكهنة هم المضطهِدون للعلم والفلسفة مدة ألف عام تقريبًا، فالكنيسة اضطهدت العلماء، والمسيح — الذي كان يطلب من المسيحي أن يدخل غرفته، ويقفل على نفسه ويصلي — لم يفكر قط في إنشاء كنيسة وإقامة كهنة عليها، وإنما جاءت هذه الفكرة من بولس، فالمسيحية الفاشية الآن ومنذ القرن الأول للميلاد هي مسيحية بولس، وليست مسيحية المسيح. ونقول — بعبارة أخرى: إن الدين للمسيح والكنيسة لبولس، وإن الدين إذا كان قد عاق العلم أحيانًا ببعض عقائده فإن السبب هو الكنيسة التي اضطهدت العلماء.

وقبل أن نعرض للاضطهاد الديني يجب أن نعرف هنا العلل التي يرجع إليها نجاح المسيحية دون الأديان التي كانت تحوطها، والتي كانت أقوى منها، وكانت تستند إلى قوًى كبيرة عند ظهور المسيحية.

فأول ما يجب ذكره أنه عند ظهور المسيحية كانت الثقافة الرومانية والإغريقية قد ضعضعت الآلهة، وأزالت من النفوس ما كان لها من حرمة، واستعد الناس للإيمان بإلهٍ واحد.

ثانيًا: لما استبحر العُمْران، وانتشرت الحضارة الرومانية والإغريقية والمصرية؛ تداخلت الأديان، وصارت العقائد الخاصة بأحدها تدخل في الآخر، وعندما كثرت المهاجرات زاد هذا التدخل، ولما ظهرت المسيحية دخلتْها طائفةٌ كبيرة من العقائد الفاشية في ذلك الوقت في تلك الأديان، وما زلنا — نحن المصريين — نعرف في المسيحية فكرة الثالوث: الآب والابن والروح القدس، وأنها هي الفكرة التي كانت فاشيَة عند المصريين باسم أوسوريس وإيسيس وهورس، وقد يسَّر هذا التداخُل على الناس الإيمانَ بالدين الجديد.

ثالثًا: الديانة المسيحية هي ديانة البر والتسامح والغفران، وهذه كلها فضائل يقدرها الفقير أكبر تقدير، وإن كان الغني القادر لا يبالي بها كثيرًا؛ لأن نفعها يعود على الفقير، وقد كان الفقر من نصيب تسعة أعشار سكان الإمبراطورية الرومانية؛ ولذلك انتشرت بينهم المسيحية.

رابعًا: كان من الممكن أن يؤمن الناس باليهودية دون المسيحية؛ لأن لكل منهما إلهًا واحدًا، إنما كانت تمتاز المسيحية عن اليهودية من حيث إنها كانت تقبل جميع الناس، بخلاف اليهودية التي كانت تقصر الدين الموسوي على اليهود كأنهم شعب الله المختار.

وقد بدأت المسيحية تفشو كأنها مذهب خاص من مذاهب اليهودية، ولم يكن بين المؤمنين بها أولًا سوى اليهود، ولكن بولس أخرجها من هذه الحظيرة الضيقة، وجعلها دينًا عامًّا لجميع الناس، ولقي في عمله هذا عنتًا كبيرًا من اليهود.

خامسًا: بقيتْ الكنيسةُ المسيحية ضعيفة حتى انتقلت عاصمة الإمبراطورية من رومية إلى القسطنطينية؛ فانفرد عندئذٍ بابا رومية بسلطان كبير لم يكن له مدة وجود الإمبراطورية في رومية.

كان الروماني مفطورًا بطبعه وتربيته وجغرافية إمبراطوريته على التسامح، فلم يكن يعارض المصريين أو الإغريق أو الألمان في ممارسة أديانهم ما دامت هذه الأديان لا تُنكر سلطان رومية.

ولكن المسيحية كانتْ تُنكر هذه السلطة، فكان الشاب الروماني يرفض الانخراط في سلك الجندية؛ لأن المسيحية تنهاه عن مقاومة الشر بالشر، ولم يكن سلطانُ رومية قائمًا إلا على قوتها الحربية، التي إذا تزعزعت لم يبق لهذا السلطان من أثر.

فيمكننا الآن أن نتصور مقدار الحنق الذي كان يشعر به والٍ في إفريقيا أو إسبانيا أو سوريا عندما كان يرى أمامه شابًّا رومانيًّا، قويَّ العضل متين البنية، يقف أمامه، ويرفض إخمادَ فتنة تهدد الدولة بالخطر العظيم؛ لأنه ينتمي إلى جمعية صغيرة تُدعى جمعية المسيحيين، اتفق أعضاؤها على أن لا يمتشقوا حسامًا ولا يدخلوا في حرب.

وكان مثل هذا الوالي يبحث بالطبع عن الكتاب الذي يحتوي على عقائد هؤلاء المسيحيين، فيقرأ الإنجيل فيجده ينطوي على الثورة على الأغنياء والأقوياء والمتسلطين، وكان يقرأ في «الرؤيا» وصفًا للمدينة الفاجرة القائمة على التلال أو الجبال، فلا يفسر لنفسه كل ذلك إلا بأن المدينة هي رومية، وبأن الكفار المتسلطين هم الرومانيون.

ثم كان العامة يرون هذا الدين الجديد يندسُّ بينهم، وخاصة بين العبيد الفقراء الذين كانوا يرون منهم من احتقارهم لأصنامهم ما كان يُثير غيظهم. فكان من ذلك كله أنه قام في ذِهن رجال الدولة أن يُقمع هذا الدين الجديد؛ لأنه ينافي مصالح الدولة.

وبدأ الاضطهاد من ذلك الوقت، ولم يكن الاضطهاد من الدولة وحدها، بل كان من الأمة أيضًا، فإنه عندما احترقت رومية في عهد الوغد نيرون حمل العامة على المسيحيين، فأثخنوهم قتلًا، وأعملوا التدمير في بيوتهم، بحجة أنهم هم الذين أشعلوا النار لتخريب رومية.

ولا يمكن أن يُعرف عدد الذين قتلوا باضطهاد الدولة الرومانية للمسيحيين؛ فالأغلب أنهم لا يزيدون عن بضعة آلاف في جميع أنحاء الدولة، من إنجلترا إلى العراق ومن ألمانيا إلى مصر، والسنة القبطية يبتدئ تاريخُها باضطهاد دقلديانوس للمسيحيين، مما يدل على الأثر الكبير الذي تركه هذا الاضطهاد في نفوس الأقباط. ولكن ليس هناك ما يدل على أن الأقباط الذين قُتلوا في هذه الاضطهادات يزيدون على بضع مئات؛ فإن القاضي الروماني لم يكن يدرك شيئًا من المسيحية سوى ما كان يتعارض فيها والسلطة الرومانية، فكان يقنع بأوهى اعتراف بهذه السلطة لتبرئة المسيحي في العهد الأول لظهور المسيحية.

ثم لما زاد عدد المسيحيين زاد الاضطهاد، فصارت الدولة تقتفي آثارَهم، وتكبسهم في معابدهم، وتقدِّمهم طعامًا للوحوش في الملاهي الكبرى، وقد اشتهر باضطهاد المسيحيين إمبراطور يدعى دقلديانوس، مات سنة ٣١٣، وأخفق في إدارة الدولة إخفاقًا تامًّا، حتى خلع نفسه عن العرش، وذهب يزرع الكرنب في دلماطيا، ولم تكن مسألة المسيحيين إلا إحدى المسائل العديدة التي عالجها ولم يستطع حلها.

ولنضرب مثلًا على عجزه بمسألة أخرى: فإن كثرة الضرائب على أصحاب الأرض جعلتهم يهجرون أرضهم، ويقبلون على المدن للإقامة فيها وتعلُّم صناعتها، فبدلًا من أن

يخفف عنهم الضرائب التي يفرون منها شرع للدولة شرعة جديدة، تقتضي ألا يعمل أحد عملًا لم يعمله أبوه، وأن يقتصر كل إنسان على الصناعة التي كان يعملها هذا الأب — بصرف النظر عن كفايته في أية صنعة أخرى — فكان التاجر يؤخَذ ويرد إلى الأرض؛ لأن أباه كان فلاحًا، وكان البنَّاء يؤخذ من صناعته ويرد إلى الحدادة؛ لأن أباه كان حدادًا، وهلم جرًّا، وقد أحدثت هذه الشرعة ارتباكًا عظيمًا في الدولة، يشبه ما كانت تحدثه مراسيم الحاكم بأمر الله في مصر.

ورأى دقلديانوس في السنة التي مات فيها — بعد أن ترك عرش الدولة بنحو ٧ سنوات — أن المسيحية صارت دينًا معترفًا به من إمبراطور الدولة قسطنطين، فكان يزرع الكرنب، ويفكر في هذا العالم العجيب كيف يصبح دينٌ بعد كل هذه الاضطهادات التي أوقعها هو بالمؤمنين به، دينَ دولة يقضي على كل الأديان التي سبقته؟!

والحق أن دقلديانوس كان قبل أن ينزل عن العرش قد رأى أن خطة القمع لا تجدي نفعًا، وأن الاستشهاد تربةٌ خصبة يتضاعف حصيدها سنة بعد أخرى؛ ولذلك نشر في جميع أنحاء الإمبراطورية منشورًا أذن فيه للمسيحيين بممارسة دينهم، وقال فيه: «لقد كنا نود بصفة خاصة أن نرد إلى سنَّة العقل والطبيعة أولئك المسيحيين المخدوعين، الذين جحدوا الديانة والشعائر التي اتخذها السلف، ثم افتأتوا على القدماء، وازدرَوا بهم، واخترعوا قوانين وآراء أسرفوا فيها بمقدار ما سمحت لهم مخيلتهم، ثم أنشئوا جمعية مؤلَّفة من الأقاليم المختلفة في إمبراطوريتنا.

وبما أن المراسيم التي أذعناها؛ بغية تحتيم عبادة الآلهة قد عرَّضت كثيرين من المسيحيين للخطر والكوارث، وبما أن كثيرين منهم قد قُتلوا، وكثيرين أيضًا ممن لا يزالون مصرين على جنونهم الفكري قد حُرموا من ممارسة علنية — فقد رأينا أن نبسط لهؤلاء التعساء ثمرة تسامحنا؛ ولذلك نرخص لهم بممارسة آرائهم والاجتماع معًا في معابدهم بدون خوف أو مضايقة، وذلك بشرط محافظتهم على قوانين البلاد وحكومتها، واحترامهم لها.»

ومنذ ذلك الوقت أخذ الفقراء يدخلون في الدين أفواجًا في جميع أنحاء الإمبرطورية، وصارت المعابد والأصنام تُهدم، ولم يحافظ على الوثنية سوى الأشراف والسادة في المدن الكبرى، وحوالي سنة ٤٠٠ أمر الإمبراطور جراتيان بهدم تمثال النصر من «السنات» أي مجلس الشيوخ في رومية؛ لأن الأعضاء المسيحيين كانوا يتأذَّون برؤية هذا التمثال، واحتج الأعضاء الوثنيون، ولكن احتجاجهم لم يؤدِّ إلا إلى نفي بعضهم من رومية.

وانعكس مجرى التيار، فصار الأباطرة يضطهدون الوثنيين بعد أن كان أسلافهم يضطهدون المسيحيين، ولكن هذا الاضطهاد لم يدم طويلًا، ولم يبلغ من الحدة ما بلغته الاضطهادات السابقة لسببين؛ أولًا: أن الوثنيين كانوا من السادة أرباب الحكم. والثاني: أن هؤلاء الوثنيين عندما رأوا أن أبواب الشرف والسيادة قد انفتحت في الكنيسة لم يتوانوا عن وُلوجها، والتمتُّع بامتيازاتها.

وفي هذا الوقت نجد أشراف الرومانيين يدافعون عن حرية الرأي بحماسة لم يعرفوها مدة اضطهادهم للمسيحيين، فكان منهم سيماخوس الذي مات سنة ٤٠٥ يقول في الدفاع عن حرية الرأي:

> لماذا لا نعيش — نحن الوثنيين — مع جيراننا المسيحيين في سلام ووفاق؟! فكلانا ينظر إلى نجوم واحدة، وكلانا على سفر في هذا الكوكب، وكلانا يعيش تحت سماء واحدة، فهل من المهم أن نعرف الطريق التي يختارها كل فرد لبلوغ الحقيقة؟!

ومنهم تيمستينوس؛ فإنه رأى أن الإمبراطور فالنس (مات سنة ٣٧٨) قد انضم لطائفة مسيحية على طائفة أخرى، وكان هو نفسه وثنيًّا يؤمن بديانة آبائه، فقدم إليه هذه النصيحة الغالية:

> إن هناك ميدانًا لا يمكن الحاكم — أيًّا كان — أن يمارس فيه سلطانه، وهذا هو ميدان الفضائل، وخاصة عقائد الشخص الدينية، فإن الإجبار هنا لا يُثمر سوى النفاق، والتمذهب بمذهب ما لا يقوم إلا على الغش، فخيرٌ للحاكم أن يتسامح مع جميع العقائد؛ لأنه بالتسامُح يمكن تجنُّب النزعات المدنية.
>
> والتسامح — زيادة على ذلك — ناموسٌ مقدس، فإن الله نفسه قد أبدى رغبتَه واضحةً في أن تكون لنا عِدَّةُ أديان، والله وحده قادر على أن يميز بين الطرق التي يتبعها الناس؛ لكي يُدركوا الحقائق الخفية والربانية. وإنه لَيَسُرُّ اللهَ أن يرى تعدد الطرق التي يعبِّر عن الولاء له بها، فهو يحب أن يرى المسيحيَّ يمارس شعائره، بينما اليوناني أو المصري يمارس كل منهما شعائرَ أُخرى.

ولكن كل هذا الكلام ذهب هباء، وابتدأ المسيحيون يضطهدون غير المسيحيين بهمة لا تعرف الكلال، ومضوا على ذلك نحو ألف سنة.

فكانت الكنيسة الأرثوذكسية في الشرق منقسِمة طائفتين تقتتلان في الإسكندرية، وفي كل بلدة كبيرة، وكان الكاثوليك في الغرب يُقاتلون الأرثوذكس في الشرق كما يقاتلون المسلمين.

ثم ظهر بعد ذلك البروتستانت، فدارت المعارك بينهم وبين الكاثوليك مدة طويلة أيضًا.

آخر التسامح: يوليان وهيباطية

القرن الرابع هو القرن الذي يفصل بين عصرين قديمين كلاهما مخالفٌ للآخر، بل كلاهما نقيض للآخر؛ فقبل هذا القرن نجد نحو ٨٠٠ سنة من التفكير الحر الجريء في الأدب والسياسة والعلوم والفلسفة، تعيش كلها في ظل الوثنية، تسيطر عليها جوقة من الآلهة، تتسامح أحيانًا في الآراء الجديدة وأحيانًا تعجز عن مقاومتها.

ففي سنة ٤٠٠ق.م مثلًا، نجد محاولات عديدة في اليونان، غايتُها إثباتُ وجود نواميسَ طبيعية للعالم، لا تستطيع الآلهة أن تخالفها، وفي سنة ٢٠٠ بعد الميلاد نجد أن جالينوس — الطبيب الخاص لمرقس أورليوس، الإمبراطور الروماني — يقول أيضًا بالنواميس الطبيعية، ويصرح بإنكار المعجزات من الأنبياء أو من الآلهة، ولكن بعد القرن الرابع نجد أمامنا نحو ألف عام سادت فيها الكنيسة المسيحية، وزالت النزعة العلمية، وانقطع البحث في العلوم والسياسة والآداب، واقتصر الدرس على التوراة والإنجيل، وعلى قليل جدًّا من الكتب الإغريقية، وعلى شيء كثير من الكتب اللاتينية.

ولسنا نعني بذلك أن الكنيسة كانت السبب الوحيد في إخماد حركة الذهن الإنساني في القرون الوسطى؛ فإن غارات القوط والوندال والمجر والبلغار والهون كانت سببًا آخر لهدم كيان الإمبراطورية ونشر الفوضى فيها — والعلوم والآداب من ثمار الحضارة والسلام — وهذه الغارات وتوحُّش القائمين بها قطعت الصلة بين علوم الإغريق وبين الأوروبيين في القرون الوسطى، فلم تكن الكنيسة تمنع الناس من التفكير الحر بمقدار ما كان يمنعهم جهلهم هم أنفسهم.

فماذا كان يدرس إذن أهل القرون الوسطى؟ كانوا يدرسون الشروح والتعليقات على الكتب اللاتينية، وعلى الإنجيل والتوراة، وعلى كتابين أو ثلاثة من كتب الإغريق القدماء،

والشرح يليه شرح، ثم شرح الشرح يليه شرح آخر، على النحو الذي يُرى الآن في بعض الكتب العربية القديمة.

والآن يجب أن نشيع الحرية الفكرية في العصر القديم بعرض بعض حوادث القرن الرابع، ويحسن بنا لكي ننقل للقارئ نفس هذا القرن أن نترجم لحياة اثنين من عظمائه، هما: يوليان الإمبراطور الكافر، وهيباطية الفتاة الفيلسوفة بمدرسة الإسكندرية.

كان يوليان ابن أخت قسطنطين الإمبراطور الروماني، الذي جعل القسطنطينية عاصمة الدولة، والذي جعل المسيحية دينًا للدولة، وولد يوليان هذا سنة ٣٣١، وحمله أهله إلى آسيا الصغرى؛ حيث درس الفلسفة اليونانية في نيقوميدية، ولكنه لم يرتوِ من هذا المنهل، فرحل إلى أثينا، وأخذ في درس القدماء، وأُشربت روحه الوطنية الإغريقية القديمة، وتشبعت نفسه بفلسفة الأثينيين، فصار ينظر إلى المسيحية كأنها فلسفة آسيوية، قد أغارت على الغرب.

ولكنه لم يكن يستطيع أن يصرح بأنه يؤثر آلهة اليونان على آلهة المسيحية، فكظم ما في نفسه إلى أن ساعدتْه المقادير؛ بأن صار إمبراطورًا، فشرع عندئذ يعمر أثينا، ويدعو الطلبة إلى دور العلم فيها، كما كانوا يحضرون أيام أفلاطون وأرسطوطاليس، وكان يحتم عليهم أن يلبسوا اللباس الذي كان يلبسه آباؤهم في عصر الفلاسفة، وأن يتكلموا اللغة التي كان يتكلمها الأثينيون قبل ٧٠٠ سنة.

وقد نرى من ذلك أن حماسته قد جاوزت عقله؛ فإن هذا الحرص على مُحاكاة القدماء ليس تجديدًا بل هو تقليدٌ، حتى أصبحت دور العلم التي افتتحها أشبه شيء بدور التمثيل.

وليس يستطيع أحد أن يحدس ما كان يمكن يوليان أن يفعل لو أن حكمه دام أكثر من سنتين، فإنه حاول أن يمحو ثقافة آسيا، ويقيم مكانها صرح الفلسفة اليونانية، ولكن الفلسفة اليونانية كانت قد نُسيت، وكانت المسيحية قد رسخت في قلوب العامة، وكان الرهبان يؤلفون عنه الأكاذيب، حتى حصبه غوغاء أنطاكية مرة بالحجارة والتراب.

ومع كل هذا الاستفزاز لم يجنح مرة إلى اضطهادهم، وكان يقول: يجب ألا يستشهد أحد، وفي سنة ٣٦٣ — وهو يقاتل الفرس — اخترق جسمه سهم، حمل منه جريحًا، ثم مات بعد أيام، وفي رواية أنه عندما أصيب بالسهم قال: «لقد انتصرت أيها الجليلي!» والجليلي هو المسيح.

وأخذت الوثنية بعد موت حامي حماها يوليان تنهزم وتنخسف أمام المسيحية، ففي سنة ٣٧٨ صدر قانون ينهي الناس عن تقديم القربان للآلهة، فانقطعت بذلك أرزاقُ

الكهنة، حتى اضطروا إلى هجرة المعابد، وكانت هذه المعابد تحتوي على طرف الصناعات القديمة، وكان يتمثل في بنائها فن القدماء، فلما هُجرت شرع الناس في نهبها وتدميرها ونقل الأحجار منها، حتى السيرابيوم — المعبد الكبير الذي كان بالإسكندرية والذي تناوبت على بنائه جهود المصريين والإغريق والرومان — دمَّر وبعثر ما فيه.

وجرى التدمير في أرض الفلاسفة بلاد اليونانيين، فكانت التماثيل الناصعة من المرمر تحطم؛ لأنها من آثار الكفار النجسة، وفي سنة ٣٩٤ ألغيت الألعاب الأولمبية؛ لأن الدين الجديد لا يُعنَى بالجسد عنايته بالروح، وجاء الإمبراطور يوستنيان فألغى كلية أثينا، واستصفى الأملاك الموقوفة عليها، وكان بها سبعةٌ من الأساتذة فَرُّوا إلى كسرى ملك الفرس، فرحب بهم، وأذن لهم في قضاء ما تبقى من حياتهم في لعب الشطرنج.

وكان بالإسكندرية جامعةٌ أنشأها البطالسة، وعاشت عدة قرون، وظهر فيها إقليدس صاحب النظريات الهندسية، وأرشميدس مخترع الطنبور — الذي يُستعمل الآن في الري في مصر — وطائفة أخرى من العلماء. فلما كانت سنة ٤١٤ كان بها أستاذة تدعى هيباطية في الخامسة والأربعين، قد اختصت بدرس الحكمة وتدريسها.

وكانت قد نشأت في بيت علم وفضل، أبوها ثيون أحد علماء الإسكندرية، رباها صغيرة، ثم أرسلها إلى أثينا؛ لكي تستكمل ما ينقصها، فلما عادت إلى الإسكندرية أخذت تدرس فلسفة أرسطوطاليس وأفلاطون، وكان الطلبة الذين يحضرونها يعشقونها لحسن بيانها، وللنزاهة التي تتسم بها في عصر كان كله أغراضًا وسفالات وتعصبًا، وكان بطرك الإسكندرية في ذلك الوقت رجلًا يدعى كيرلس، اشتهر بشيئين يدلان على روح الزمن:

أولهما أنه طرد جميع اليهود من الإسكندرية — مع أنهم كانوا دعائم عمارتها.

والثاني أنه ألَّف كتابًا يسب فيه يوليان الإمبراطور المرتد.

وثالثة أثافيه هي تدبيره قتل هيباطية، ومحو العلم من الإسكندرية؛ فقد خاف كيرلس تأثير الحكمة اليونانية في النفوس، ورأى أن بقاء الجامعة يكون بمثابة استحياء البذرة التي تنبت يومًا دوحة كبيرة، قد تقضي على ما حولها من الأعشاب، فقَرَّ رأيه على إلغاء الجامعة.

وفي أحد الأيام — وهيباطية قاعدة تحادث الطلبة — إذا بعشرات من الرهبان يتوافدون عليها، ويَقلبون كل ما يلاقونه رأسًا على عقب، ثم قبضوا عليها، وجَرُّوها إلى أحد شوارع الإسكندرية، ثم مزقوها أشلاء التهمتْها الكلاب الجائعة.

وهكذا كان مصير الحكمة إلى الكلاب على يد كيرلس بطرك الإسكندرية في سنة ٤١٥م، وحق لفم الذهب — بطرك القسطنطينية — أن يفخر في القرن الرابع بأن جميع الكتب الوثنية قد زالت من الوجود.

النزاع بين البابوية والقومية

النظر نظران: ذاتي وموضوعي، فنحن ننظر للأشياء نظرًا ذاتيًّا كما نشتهيها أن تكون في خيالنا وفق رغائبنا، ونحن نتجرد أحيانًا من خيالنا، وننظر للأشياء نظرًا موضوعيًّا فنراها كما هي في الواقع، تتجرد بذلك من خيالنا ومن شهواتنا.

فإذا نظرنا للدين الإسلامي مثلًا نظرًا ذاتيًّا فإننا عندئذ نجرده من أشياء عديدة؛ من الخلافة، ومن التحرُّج من الصلاة بالحذاء، ومن استنجاس الكلاب؛ وذلك لأننا لا نجد نصًّا بالخلافة في القرآن، ولأننا نعلم أن السلف الأول من المسلمين كانوا يدخلون الجامع ويصلون بأحذيتهم والكلاب تجتاز بالجامع.

وها أنا ذا أنقل من كتاب «ذم الموسوسين» لابن قدامة المقدسي ما يدل على صحة ذلك، قال: «وروى أنسٌ، أن النبي ﷺ كان يصلي في النعلين»، وقال النبي: «إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر، فإن رأى على نعليه قذرًا فليمسحه وليصلِّ فيهما.»

وقال ابن عمر: «كانت الكلاب تُقبل وتُدبر وتبول في المسجد، ولم يكونوا يرون شيئًا في ذلك.»

فإذا نظرت إلى الإسلام نظرًا ذاتيًّا قلت إنه لا يقول بالخلافة، وإنه يجوز الصلاة فيه بالحذاء، وإن الكلب ليس حيوانًا نجسًا، ولكن هذا النظر يُخالف الواقع؛ لأن الخلافة عاشت ١٣٠٠ سنة تقريبًا، ولأن استنجاس الكلاب واستقذار النعل من التقاليد القديمة في الإسلام، فأنا لهذا السبب أعد الخلافة جزءًا من الإسلام؛ لأن مركزي هو مركز المؤرخ الذي يقرر الواقع، وينظر نظرًا موضوعيًّا.

وكذلك الحال في المسيحية: إذا نظرت إليها نظرًا ذاتيًّا أنكرت البابوية، بل أنكرت الكنيسة والكهنة؛ لأن المسيح دعا المؤمن به أن يدخل إلى غرفته، ويقفل على نفسه ويصلي. ولكن المؤرخ يجب أن يقول إن في المسيحية كنيسة وكهنة وبابا.

والحقيقة أن النظام الاجتماعي أو الديني لا يقوم بنية صاحبه ومؤسسه، بل بأثره في الهيئة الاجتماعية، والبابوية والخلافة كلتاهما من أثر المسيحية والإسلام، وإن لم يكونا من أبنية المسيح أو محمد، وإذا كان لوثر قد أنكر البابوية، وعلي عبد الرزاق قد أنكر الخلافة؛ فكلاهما يفعل ذاك بصفته رجل دين، لا بصفته رجل تاريخ.

وللبابوية أثرٌ كبير في أوروبا، لا يمكن المؤرخ لحرية الفكر أن يتجاهله؛ فقد كان أسقف رومية في القرون الثلاثة الأولى من المسيحية لا يمتاز من سائر أساقفة المدن الكبرى في الإمبراطورية بشيء، فلما انتقلت عاصمة الإمبراطورية من رومية إلى القسطنطينية، في القرن الرابع، أصبح أسقف رومية أكبر رئيس في العاصمة القديمة، ولا يزال البابا يوقع تواقيعه الآن باسم «أسقف رومية».

وأخذ بابوات رومية في زيادة سلطتهم بتنصير الأمم النائية عن رومية في الشمال والغرب، وكانت الكنيسة في زمانهم لا تدعو إلى النصرانية فقط، بل كانت أيضًا سبيل نقل الحضارة الرومانية إلى الجرمان وما والاهم من أُمم الغرب والشمال، فانتفعتْ هذه الأمم بالكنيسة ديانة ومدنية.

وبين سنة ١٠٩٩ وسنة ١٧٢٠ كافحت رومية الإسلام، فألَّبت عليه الجيوش، وسيَّرتها إلى فلسطين وسوريا؛ لانتزاع الأرض المقدسة من المسلمين، كما أنها طاردت المسلمين من الأندلس حتى اضطروا إلى التنصُّر أو إلى النزوح عن البلاد.

ولكن الكفاح الأكبر هو ذلك النزاع الذي نشب بين البابوية والقومية؛ فإن البابا هو أمير المؤمنين بين النصارى، وهو لذلك ينظر إليهم كأنهم أمة واحدة، لغتهم الرسمية هي اللغة اللاتينية، كما أن ديانتهم هي النصرانية، وهو يعترف بوجود أمراء لهم، ولكن كلمته هي العليا، يجب على هؤلاء الأمراء أن يصدعوا لها.

وقد كان للبابا سلاحٌ قويٌّ، لا يتحرج من استعماله إذا أراد إخضاع أمير خارجٍ عليه، وهذا السلاح هو الحرم، يحرمه من المسيحية وقد يحرم رعيته، فتكف الكنائس عن دق النواقيس، وتقفل أبوابها، فلا يستطيع أحدٌ أن يتزوج، وأيضًا تُحمل الموتى إلى قبورهم بلا صلاة، وفي الوقت نفسه يغري البابا أحد الأمراء المجاورين؛ لكي يغير على إمارة هذا الأمير الخارج، ويبارك عليه في غارته.

وللقارئ أن يتصور أحوال الرعية في هذا الوقت؛ فإن كل مسيحي كان يرى نفسه مرتبطًا بولائين: ولائه لأميره وولائه للبابا، فإذا اختلف هذان الاثنان احتاج إلى أن يُقرر ترك أحدهما، وفي الترك خسارةٌ عليه على كل حال، فهو يختار أهون الخسارتين، فكان ينزل عن الولاء لأميره، ويخرج عليه؛ إرضاء للبابا.

ولننظر في حادثتين فقط من حوادث النزاع: فقد حدث في القرن الحادي عشر أن هنري الرابع — إمبراطور ألمانيا الذي مات سنة ١١٠٦ — اختلف مع البابا غريغوريوس السابع على مسألة أوقاف الكهنة، فلم يكن بأسرع من أن حرمه الباب، وألَّب عليه أمراء ألمانيا، ورأى الإمبراطور أنه بين رعيته كالأجرب، لا يقرب منه أحد بعد هذا الحرم، فخرج ساعيًا إلى البابا — وكان البابا في طريقه إلى ألمانيا، قد نزل في قصر في كانوسه — فوقف الإمبراطور على الباب ثلاثة أيام، وهو في لباس الرهبان حافي القدمين، عاري الرأس، يحمل عُكَّازه ويقر بتوبته. وبعد هذا أذن له البابا فقبل الأرض بين يديه، وخرج إمبراطورًا مسيحيًّا كما كان قبل الحرم، ولكن نار الانتقام صارت تأكل قلبه، فعاد إلى رومية بجيش جرار سنة ١٠٨١، وطرد البابا، وأقام غيره.

وهاك حادثةٌ أُخرى من حوادث هذا النزاع: اختلف الملك يوحنا ملك إنجلترا — الذي مات سنة ١٢١٦ — مع البابا، فحرمه البابا، وعُطِّلت الكنائس من الصلاة، ومُنعت عقود الزواج، وحملت الجثث إلى القبور بلا صلاة، ورأى يوحنا أن ملك فرنسا يتهيأ لغزو بلاده بأمر البابا، فأخذ يبحث عن أمير المؤمنين بين المسلمين؛ لكي يخاطبه في أن يدخل هو وجميع الأمة الإنجليزية في دين الإسلام، ولكن البعثة التي أرسلها أخفقت، فعاد يوحنا صاغرًا، يقر بخطيئته، ويطلب الغفران من البابا، وصفح عنه بعد أن رأى منه من البذل وصدق التوبة ما جعله يرفع الحرم عنه وعن الأمة.

فهذان مثالان يدلان القارئ على سلطة البابوية في القرون الوسطى، ومنها يُعرف كيف أن «محكمة التفتيش» التي أنشأها البابا لمحاكمة الهراطقة لم تحكم قطُّ على أحد من هؤلاء الهراطقة بالقتل، وإنما كان يكفي أن تحرمه هي، فتسرع الحكومة المدنية إلى إحراقه أو إعدامه بأية طريقة أُخرى، وإذا هي توانت عن ذلك رأت السلطة البابوية تتحفز لمناوأتها.

وأخيرًا في سنة ١٥١٧ انتصر مبدأ القوميات بإعلان لوثر للبروتستانتية.

المانوية

نحن هنا في تاريخ حرية الفكر نقصر نظرنا على أوروبا والإسلام؛ لاتصال حياتنا الحاضرة بالثقافة الأوروبية؛ التي هي مادتنا الذهنية، وأيضًا لِما ورثناه من التقاليد الإسلامية العربية التي تؤثر فينا إلى الآن.

ولذلك لا نبحث عن هذه الحرية في الهند أو الصين أو اليابان؛ لانقطاع الصلة بيننا وبين هذه الأقطار، ولسنا نخرج في هذا الفصل عن هذه القاعدة عندما ننظر في المانوية التي نشأت في فارس، فإن فارس — وإن كانت بعيدة عنا — إلا أنها أخرجت دينًا عجيبًا، تخطاها إلى ألمانيا وفرنسا ومصر، وعاش دهرًا ثم انقرض فجأة بعد أن أثَّر أثره في المسيحية بل في الإسلام أيضًا.

ثم نحن نذكر الأديان لعلاقتها بالاضطهاد، وتقييد الحرية الفكرية فقط، وقد ظهرت «محكمة التفتيش» أول ما ظهرت في أوروبا بسبب العقائد المانوية التي تسربت إلى المسيحية كما تسربت بعد ذلك إلى الفرق الإسلامية.

وإذا قلنا: إن «محكمة التفتيش» نشأت بسبب العقائد المانوية؛ فإننا لا نعني بذلك أن الاضطهاد الديني لم يُعرف قبل هذه المحكمة، فإنه ما كادت المسيحية تنتصر على الوثنية حتى شَبَّ الخلاف بين الطوائف المسيحية نفسها، وعقد أول «مجمع مسكوني» في نيقية سنة ٣٢٥ لتقرير العقائد، وحدث النزاع المشهور بين آريوس وأثناسيوس على طبيعة المسيح، وهل هو مثل الله أو دونه، أو هل هما واحد؟ أو نحو هذا من الخلافات التي لا نأبه نحن لها الآن ولا نفهمها، ولكن محكمة التفتيش هي أول أداة منظمة للعقاب ظهرت في المسيحية، ويرجع تأسيسها إلى العقائد المانوية، ورغبة رجال الكنيسة الكاثوليكية في تجريد الدين منها.

كان «ماني» مؤسس المانوية رجلًا فارسيًّا، ولد بالمدائن سنة ٢١٥، وجعل دينه مزيجًا من الأديان الشائعة في زمنه، ولقي حظًّا قليلًا في نشره، ثم انتصر عليه رجال الدين في فارس فصلبوه وسلخوه وحشوه تبنًا، وعلَّقوه مدة ما لكي يعتبر المؤمنون به.

ولكن تجارب الأمم تدل كلها على أن الأفكار لا تُقتل بالسيف أو بالنار؛ فما هو أن مات ماني حتى كان الناس يستشهدون من أجل أفكاره في فرنسا وإسبانيا، وحتى كان الأقباط في مصر يمارسون طائفة كبيرة من عقائده لا تزال حية إلى الآن. ويبدو لمن تأمل المانوية أن ماني كان يقصد إلى إيجاد وفاق عام بين الناس بالتوفيق بين أديانهم جميعًا؛ فقد درس البوذية، وأخذ منها فكرة التسلط على الشهوات، وقمعها بسحق الجسم، وحرَّم لذلك جملة مآكل، وقصر طعامه على الخضراوات والسمك — كما هو صوم الأقباط الآن.

وجرى في منطقه البوذي — الذي استقاه من معينه بعد أن ساح في الهند والصين — إلى نهايته بأن جحد الحب والتناسل، فقال بإيثار العزوبة على الزواج، وترجع العزوبة التي يتسم بها كهنة الكاثوليك الآن إلى هذه النزعة المانوية. ثم أخذ من زرادشت — نبي الفرس — تقسيم القوة الكونية إلى مبدأين، مبدأ الخير ومبدأ الشر، وكان زرادشت يعبر عن الأولى بالضوء وعن الثانية بالظلام، فنقح هو هذا التعبير بأن جعل إله المسيحية مبدأ للخير وإله اليهود «يهوه» مبدأ للشر.

وتقوَّضت كنيسته بموته سنة ٢٧٧، ولكن عقائده — كما قلنا — لم تمت، فتقمصها الكهنة المسيحيون في غرب أوروبا، وجنحوا إلى العزوبة، وحرَّموا على الناس قراءة التوراة؛ لأنه كتاب «يهوه» وكان المانويون يُدْعون «الطاهرين» لشدة تقشفهم، ولإعلائهم شأن الروح، وإنكارهم اللذات الجسدية.

وأول ضحايا المانوية أسقف إسباني يدعى بريشيليان، أحرق سنة ٣٨٥ لهرطقته المانوية، وبعد هذا التاريخ لا نسمع شيئًا عن المانوية إلى القرن الحادي عشر، حين نسمع عن طوائف تتسمى بأسماء مختلفة، ولكنها مشربة بهذا المذهب: فمنهم طائفة الألبين التي عاشت في جنوب فرنسا الشرقي، لا نعرف متى ابتدأ تكوينها، وإنما يذكر التاريخ أن أول من قُتل لتمسكه بمذهبها كان سنة ١٠٢٢، وأن آخر من قُتل كان سنة ١٣٤٥، وأن محكمة التفتيش أنشئت في هذا العهد.

ولما لم تكف المحكمة — إذ كان كل شهيد يُقتل أو يحرق يتقدم لملء فراغه عشرة أو عشرون — نظمت الجيوش وسلطت على الطائفة كلها لمحقها. وكان الألبي يؤمن بأن الجسم والمادة كليهما شر، وأن المسيح إنما عاش على الأرض روحًا لا جسم له، وأن الزواج

منكر يحسن بالإنسان أن يتجنبه، وأن الإنسان لا يمكنه أن يتحرر تمامًا إلا بالتقشف وإنكار الذات.

وكانت الطائفة منقسمة فئتين: فئة القادة «الطاهرين» وهؤلاء كانوا يعيشون في نسك وتقشف بالغَين، وفئة «الأتباع» الذين لم يكن يُطلب منهم مثل هذا النسك أو التقشف، ولعل كل ذلك كان يمكن كنيسة البابا أن تتسامح فيه وتتصام عنه، ولكن الألبين كانوا — وهذا موضع الخطر — يرفضون أن يرضخوا للكنيسة بقرش واحد من مالهم.

وأخيرًا ألهب الألبيون شرارة الحرب بأن قتلوا مندوب البابا في بروفانس — الإقليم الذي يسكنونه — فتعلل البابا أنوسنت الثالث بقتل مندوبه، ودعا لجهادهم، ورغَّب الناس في هذا الجهاد بأن كل من يقاتل هؤلاء الكفار أربعين يومًا متوالية يُرفع عنه ربا الديون التي يستدينها، وتغفر له خطاياه السابقة واللاحقة، وأيضًا يعفى مدة القتال من سريان أحكام القضاء عليه، ومعنى هذا الامتياز الأخير أنه يستطيع أن يفعل بمن يقاتلهم كما يشاء.

واجتمع الأوباش من جميع أنحاء أوروبا؛ تلبية لهذا النداء، ومحقوا الألبيين محقًا، وكان يقود هؤلاء الأوباش رجل إنكليزي يدعى سيمون دومونتفورث، كوفئ على الفظائع التي ارتكبها بإقطاعه عدة ضياع واسعة في أرض هؤلاء المساكين الذين قتلهم وأبادهم، وبقي أفراد من الألبين توزعوا في البلاد وقد ذلوا واستكانوا، ولكن محكمة التفتيش كانت تستثيرهم من أجحارهم، وتعمل فيهم الموت قتلًا بالسيف، وإحراقًا بالنار، وخنقًا بالحبال إلى أن زال اسمهم تمامًا.

وكانت محاكم التفتيش تنشأ في كل مكان، وتحاكم الناس على كل شيء، وأشهر هذه المحاكم «المحكمة الملوكية» في إسبانيا و«المحكمة المقدسة» في رومية، والأولى مشهورة بقتل الأندلسيين المسلمين واليهود.

وعاشت محاكم التفتيش أكثر من خمسمائة سنة، قتلت فيها الألوف من الناس، ولا نعني بالناس دهماءهم الذين يرضون بما يُملى عليهم، بل نعني: خيارهم وعلماءهم ومفكريهم، أولئك الذين كانت لهم كرامة فكرية لا يبيعونها بنفوسهم، وكان لهم عرض ديني ينافحون عنه، وكان لهم ضمير يأبون الزنا عليه. هؤلاء الناس قتلتْهم محاكم التفتيش، فحرمت أوروبا من هذا العرق الثائر الحر الكريم، واستأصلت من إسبانيا جرثومة التفكير الحر، حتى باتت هذه الأمة — وهي تعيش الآن بأجسامها في القرن العشرين — وأرواحها لا تزال تتحسس الحياة في القرون المظلمة.

وكان الإنسان في تلك العصور يكبس منزله وهو هادئ وادع، فيحمل في جوف الليل، ويعتقل الأشهر — بل السنين — وهو لا يدري ماهية التهمة التي سيُتهم بها؛ لأن خصمًا له من الجيران قد أبلغ المحكمة بأنه سمعه يقول كيت وكيت عن «الرؤيا» أو عن «الثالوث» أو عن «المعجزات».

وكان يحرم على المتهم أن يوكل عنه محاميًا، أو أن يعرف اسم الذي أبلغ عنه، وكانت المحكمة تعتبر شهادة الهرطيق إذا كانت على المتهم، فإذا كانت له لم تعتبرها، ثم إذا أصرَّ المتهم على إنكار ما نسب إليه من التهمة جاز للمحكمة تعذيبه بأن تقطعه أشلاء، شلوًا بعد شلو، أمام عينيه، أو أن تُقرض لحمه بالمقراض، وأخيرًا تحرقه، وقد يحرق وهو لا يدري فيم أحرق.

وقد يبدو غريبًا للقارئ أن يعرف أن محكمة التفتيش كانت تحكم على رجل قد مضى على موته نحو خمسين سنة، فتأمر بنبشه من القبر، وتستصفي جميع أملاكه بعد أن تتهمه بالهرطقة، التي ربما كان هو نفسه لا يعرف منها شيئًا، دع عنك ورثته المساكين الذين يصادرون في أملاكهم اعتبارًا بأنها كانت ملك هذا السلف الخاطئ، فيخرجون من نعمة نشئوا وتقلبوا على بساطها، شريدين مطرودين، يمتهنهم كل من كان دونهم في المقام والمال.

وكانت طائفة الرهبان الجوالين يتجرون بالدين، يطرقون الناس وينزلون ببيوتهم، يأكلون ويشربون هانئين في رغد، فإذا أحسوا بضجر أو إساءة اتهموا رب البيت بالهرطقة، ولم يكونوا يخشون شيئًا؛ لأنهم كانوا يعرفون أن المتهم سيقر بالتهمة لفرط ما ينال جسمه من العذاب، فإذا اعترف قتل، ولم يقف الجمهور على غدرهم وباطلهم.

وقد كان هؤلاء الرهبان ومحاكم التفتيش سببًا من أسباب النجاح الذي أصابته الدعاية البروتستانتية، بل سببًا أيضًا من أسباب نزعة الإلحاد التي فشت في العالم الأوروبي.

مقام الخلافة في الإسلام

في القرن السابع كان الشرق الأدنى قد سئم سيطرة القسطنطينية؛ لأن اختلال إدارتها كان قد بلغ شأوًا عظيمًا، ولأن الخلافات المذهبية بين الطوائف كانت كرَّهت الناس في حكوماتهم المحلية، فما إن هبت الريح العربية حتى تلقاها أهل سوريا ومصر كما يتلقى المحرور النسيم، وكانت روح الإسلام المهادنة والمحايدة، فكان يقنع في أول ظهوره بالجزية من الذميين، ويترك لهم شئونهم الداخلية، وكان جنود العرب يقيمون في أرباض المدن بعيدين عن الأهالي، فخف لذلك عبئهم على الأهالي، وآثروهم على الرومانيين.

وإذا أردنا أن نستكنه روح الإسلام يجب أن نفهم روح الأعرابي في جزيرة العرب، فهي روح البداوة، والبدوي بطبيعة معيشته يتعصب لوحدانية الله تعصبًا شديدًا، ويكره جميع ضروب الترف، سواء أكان هذا الترف ذهنيًّا أم ماديًّا، وربما كان الوهابيون الآن أقرب من يمثل لنا فورة الإسلام وهبوب العاصفة العربية على الدولة الرومانية.

ويمتاز الإسلام من سائر الأديان بأنه ليس له كهنة سوى كاهن واحد هو الخليفة، ولست في قولي هذا أجهل المحاولات الشريفة التي حاول بها كتَّاب عصريون أن يجعلوا الخلافة منصبًا مدنيًّا فقط؛ فإن الذي يبعثهم على ذلك بواعث شريفة، ولكنها تُخالف التاريخ، فالواقع أن الخليفة حاكم مدني وديني معًا، وأن الخوارج الذين خرجوا على علي بن أبي طالب إنما فعلوا ذلك؛ لأنه في نظرهم لم يستبد الاستبداد اللائق بالخلافة، وأنه رضي بالتحكيم، مع أن الخلافة منصب ديني يستمد سلطته من الله، ويشترط الاستبداد بالرأي.

ولكن المتأمل في هذا الموضوع يرى نفسه في مأزق من الشك، هل ينسب الاستبداد في الخلافة إلى الروح البدوية العربية أم إلى فقهاء الإسلام؟ من الجهة الواحدة نرى أن العربي البدوي يؤثر الحكم المطلق، وبيئته تساعده على ذلك؛ لأنه في رحلته أو مقامه في

وسط الصحراء كالمسافر على السفينة، ينظر إلى الربان نظرة الجندي للقائد، أو هو بين إخطار الغارات التي تنزل به في أي وقت يحتاج إلى قائد مستبد، يرى الرأي وينفذه في التو والساعة.

ومن الجهة الأخرى نرى أن أممًا مسلمة كثيرة بعدت عن الروح العربية، ولكن بقي بها استبداد الخلافة، وقد يقال: إن القرآن لم ينص على الخلافة، وهذا صحيح، ولكن الإنجيل أيضًا لم ينص على البابوية، فكما أنه لا يمكن أن نخلي المسيحية من تبعات البابوية، فكذلك لا يمكن أن نخلي الإسلام من تبعات الخلافة، والحقيقة أن البابوية والخلافة ترجعان إلى التقاليد المأثورة لا إلى الإنجيل ولا إلى القرآن.

وقد انتفع الإسلام من عدم وجود الكهنة في نظامه، ولكن بقاء المسحة الدينية على الخلافة كاد يزيل هذه الميزة التي للإسلام على الكنيسة المسيحية؛ فإن المهدي والهادي مثلًا اقترفا فعلًا بخلافتهما من اضطهاد الزنادقة مثلما اقترف الكهنة بمحكمة التفتيش من اضطهاد الهراطقة، ومن يقرأ الخُطَبْ التي فاه بها بعض الخلفاء يشعر أن دعواهم بالحق الإلهي في الحكم الديني والدنيوي تزيد على دعوى البابوات في رومية.

وليس ههنا مجال الكلام على أصول الإسلام أو غاياته أو قيمته العمرانية، وكل ما يمكن أن نقوله أنه دين يتسم بكراهية الترف، وبشدة الإيمان بالوحدانية، وأن الوهابيين يمثلون روحه الآن أصدق تمثيل.

والخليفة والبابا كلاهما كان له شأن في تاريخ حرية الفكر، الأول في الشرق والثاني في الغرب، وكلاهما قد اعتمد على سلطة إلهية ليس للبشر سلطان عليها؛ ولذلك لا يمكن مؤلفًا يؤرخ حرية الفكر أن يهمل الإلمام بتاريخهما.

والخليفة هو مصدر السلطات الدينية والمدنية لجميع الأمم الإسلامية، وهو من حيث الانتخاب يشبه البابا، فكلاهما يُنتخب، والبيعة هي الشكل الذي عرفه المسلمون لتقرير الانتخاب، ويُقابلها عند البابا القرعة.

فالبابا — كان ولا يزال — ينتخبه الكرادلة؛ أي كبار الكهنة، بالقرعة، أما الخليفة فكان مدة الخلفاء الراشدين ينتخب بالبيعة العلنية، تنتخبه الأمة بأجمعها. ولكن في حين أن البابا لا يزال يُنتخب للآن؛ فإن الخلفاء منذ ابتداء الدولة الأموية إلى آخر الدولة العباسية والعثمانية كانوا يتوارثون الخلافة.

وقد كانت الخلافة مدة الخلفاء الراشدين — أبي بكر وعمر وعثمان وعلي — يغلب على خلفائها الزهد والورع، فلما انتقلت إلى الأمويين زالت عنها المسحة الدينية تقريبًا،

مع استثناء عمر بن عبد العزيز، وهي لو استمرت في دولة الأمويين لاقتصرت على الحكم المدني، وربما كان اهتدى المسلمون بالأمويين إلى نظام دستوري لحكمهم، فقد كان الأمويون ينظرون إلى العرب بعين العطف، وإلى الإسلام بعين الحسد، وكانوا يكتمون جميع النزعات الدينية.

ولكن ظهرت الدولة العباسية — التي تنتمي إلى العباس عم النبي — فعادت الصبغة الدينية، واستمر الخلفاء في صعود إلى أن استولى الفرس والأتراك على البلاد، فضيَّقوا على الخليفة، واضطروه إلى الانزواء في قصره، ورتَّبوا له معاشًا، فعاد أسوأ حالًا من البابا الآن.

وإليك الآن خطبة لأبي جعفر المنصور العباسي، الذي مات سنة ٧٧٥م، وتدلك على مقدار نظره إلى سلطته، قال:

> أيها الناس! إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده، وحارسه على ماله، أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه، فقد جعلني الله عليه قفلًا، إن شاء الله أن يفتحني فتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم، وإن شاء أن يقفلني عليها أقفلني، فارغبوا الله وسلوه في هذا اليوم الشريف الذي وهب لكم من فضله ما أعلمكم به كتابه؛ إذ يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أن يوفقني للرشاد والصواب، وأن يلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم.

ولما استوزر الناصر — الذي مات سنة ١٢٢٥م — وزيره محمد بن برز القمي أذاع منشورًا بين الناس هذا نصه:

> محمد بن برز القمي نائبنا في البلاد والعباد، فمن أطاعه فقد أطاعنا، ومن أطاعنا فقد أطاع الله، ومن أطاع الله أدخله الجنة، ومن عصاه فقد عصانا، ومن عصانا فقد عصى الله، ومن عصى الله أدخله النار.

واختلفت حظوظ الخلفاء من سطوة المنصور إلى ذلة القاهر، ومن أُبَّهة الرشيد إلى ورع عمر بن عبد العزيز، ويمكن أن يقال: إن الأتراك هم الذين جعلوا الخلافة اسمًا بلا مسمًّى؛ فإنهم كانوا يخلعون الخلفاء، ويسملون عيونهم ويعذبونهم.

فمن ذلك ما فعلوه بالقاهر الذي بويع سنة ٩٢٩م، فإنهم «هجموا عليه وسملوه حتى سالت عيناه على خديه، ثم حبس في دار السلطنة، ومكث في الحبس مدة، ثم أخرج

منه عند تقلب الأحوال، وكان مرة يحبس ومرة يفرج عنه، فخرج يومًا ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس … فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك، وأعطاه خمسمائة درهم.»

ولما دخل المغول بغداد انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة، وبقي الخليفة يمثل المجد التاريخي القديم، ويولي الأمراء باسمه، إلى أن جاء سليم سلطان الأتراك فاحتمله معه إلى القسطنطينية، ولا يعرف هل نزل له الخليفة عن حقوق الخلافة أم ادَّعاها سليم دعوى القادر الغاصب، وبقيت الخلافة في سلاطين الأتراك إلى أن ألغاها الأتراك حديثًا، ومحوها من بلادهم.

وكان من الخلفاء المُحب للعلم والكاره له، فكان منهم المأمون الذي كان يأمر بنقل فلسفة الإغريق إلى العربية، وكان منهم أيضًا المهدي الذي كان «شديدًا على أهل الإلحاد والزندقة لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم.»

التسامح في الإسلام

من أحسن الكتب التي وضعت في اللغة العربية في بدء هذا القرن كتاب «ابن رشد وفلسفته» الذي ألَّفه فرح أنطون؛ فهو أول كتاب ظهر في اللغة العربية يدافع عن حرية الفكر والتسامح الديني، وقد حدثت بين المؤلف والشيخ محمد عبده مناقشة حادة بشأن التسامح في الإسلام والنصرانية، يمكن القارئ الراغب في التزيد في هذا الموضوع أن يرجع إليها في الكتاب نفسه، ولكننا وجدنا فيه للشيخ محمد عبده دفاعًا عن الإسلام يحسن بنا أن نثبته هنا؛ حتى يذكره القارئ وهو يقرأ ما نقلناه من الكتب التاريخية بشأن اضطهاد بعض الخلفاء لغير المسلمين من النصارى واليهود، قال الشيخ محمد عبده:

> قال المستر دربير — أحد المؤرخين ومن كبار الفلاسفة: «إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى والنسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيرًا من الأعمال، ورقوهم إلى المناصب في الدولة، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه.»

وقال في موضع آخر:

> كانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء إلى النسطوريين تارة وإلى اليهود تارة أخرى، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم ولا إلى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة.

قال الخليفة العباسي الأكبر، المأمون:

> إن الحكماء هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده؛ لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة، هم ضياء العالم، وهم واضعو قوانينه، ولولاهم لَسقط العالم في الجهل والبربرية.

وقال في موضع آخر:

إن العرب زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين، ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين.

ولست في حاجة إلى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس، وأقاموا من المراصد، وما حشدوا من الكتب في المكاتب؛ لأن هذا خارج عن بحثنا الآن.

… أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس بن بختيشوع طبيب المنصور: كان فيلسوفًا كبيرًا، عَلَتْ منزلته عند المنصور، كانت له زوجة عجوز لا تُشْتَهَى، فأشفق عليه المنصور، وأنفذ إليه ثلاث جوارٍ حسان، فردهن وقال: «إن ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي ما دامت حية» فأعلى مكانته حتى على وزرائه، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة، وخرج إليه ماشيًا يسأل عن حاله، فاستأذنه الحكيم في رجوعه إلى بلده؛ ليدفن مع آبائه، فعرض عليه الإسلام ليدخل الجنة، فقال: «رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار» فضحك المنصور وأمر بتجهيزه، ووصله بعشرة آلاف دينار — وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالإمساك وكزازة اليد — وأوصى من معه بحمله إذا مات في الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب، ثم سأله عمن يخلفه عنده، فأشار إلى عيسى ابن شهلانا أحد تلاميذه، فأخذه المنصور مكان جيورجيس، فطفق يؤذي القسوس والبطارقة، ويهددهم بمكانه عند الخليفة؛ لينال منهم رغائبه، فشعر الخليفة بذلك وطرده.

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده أبو سهل، وكانا فارسَين على مذهب الفرس، ثم كانت ذرية مسلمة لأبي سهل، وكانوا جميعًا منجمين، لهم شهرة في علوم الكواكب فائقةٌ.

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخلفاء المهدي تيوفيل، ابن توما النصراني المنجم، وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وله كتبٌ في التاريخ جليلةٌ، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية بأفصح عبارة.

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب، وجبريل ولده، ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني — الذي تقدم أن الرشيد جعله مديرًا لجميع مدارس بغداد — ولاه الرشيد ترجمةَ الكتب القديمة، طبية وغيرها، وخدم الرشيد ومَنْ بعده إلى المتوكل. وكان يعقد في داره مجلسًا للدرس والمناظرة، ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما كان يجتمع في بيت يوحنا بن ماسويه.

وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون، أقامه كذلك أمينًا على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة، وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه، وكانا نصرانيين، وولى سابور بن سهل مارستان جندي سابور.

وكان سلمويه بن ينان النصراني طبيبًا عند المعتصم، ولما مات جزع عليه جزعًا شديدًا، وأمر أن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى.

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يومًا فأجلسه بجانبه، وكان عليه دراعة رومية من الحرير بها فتق، فأخذ المتوكل يُحادثه ويعبث بالفتق، حتى وصل إلى النيفق وهو ما اتسع من الثوب، ودار الكلام بينهما حتى سأله المتوكل بماذا تعلمون أن المسوس يحتاج إلى الشد؟ فقال بختيشوع: إذا عبث بفتق ذراعه طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه، فضحك المتوكل حتى استلقى.

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن إسحاق النصراني العبادي، وهو من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره، وامتحن المتوكل صدقه، فظهرت له عزيمة لا تفل، فأقطعه إقطاعات واسعة، وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتًى، فكلفه بترجمة الكتب، وكان يعطيه ما يترجم ذهبًا، وكان بينه وبين الطيفوري النصراني مُحاسَدة أفضتْ إلى طلب الحكم على حنين في مجلس الأساقفة بالحرم من الكنيسة، فمات غمًّا لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة. وهذا الطيفوري أيضًا كان من المقربين عند الخلفاء.

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متَّى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري، كان متفننًا في جميع العلوم العقلية، أخذ عنه أبو نصر الفارابي، وانتهت إليه الرياسة في بغداد، وكان من أهل دير قنى، ونشأ في مدرسة مار ماري، وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين.

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة الإسلام، وهو نصراني، طلبه الخليفة إلى بغداد لأجل الترجمة، ثم يحيى بن عهدي بن حميد بن زكريا المنطقي، انتهت إليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته، وقرأ على متَّى بن يونس، وعلى أبي نصر الفارابي.

ومنهم أبو الفرج بن الطيب فيلسوف عالم، قالوا: كان كاتب الجاثليق متميزًا في النصارى ببغداد، وكان يقرئ صناعة الطب في المارستان العضدي، وكان معاصرًا للشيخ الرئيس ابن سينا، والرئيس يمدح طبه، ولا يحمد فلسفته، وله كلام فيه.

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قرة الحراني الصابئ — من طائفة الصابئين المعروفة — تربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور، وبلغ من علوم الفلسفة مبلغًا لم يدانه فيه غيره، وله تآليف كثيرة من المنطق والطب والرياضيات، وبلغ عند المعتضد مقامًا تقدم فيه عنده على وزرائه، وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين بحرَّان، ثم كان ابناه إبراهيم وسنان على قدم أبيهما، ومن حفدته أبو الحسن ثابت بن قرة، وكان ثابت وإبراهيم وسنان صابئين، ولهم من المنزلة ما علمت، ومدحهم كثير من شعراء المسلمين، وهم صابئة.

انتهى ما أردناه من كلام الشيخ محمد عبده ومنه يرى القارئ شيئين:

(١) تسامُح الخلفاء ورعايتُهم للعلماء النصارى.
(٢) تشجيعهم للعلوم.

في معظم حوادث الاضطهاد الديني نجد أن رجل الدين يتعلل بالدين وغايتُه في الحقيقة السياسةُ، ولولا المصلحة السياسية أيضًا لَبقي الدين معتكفًا منعزلًا وحده في

جامع أو صومعة، فقد تسمع أن ريتشارد قلب الأسد صادر اليهود في أموالهم في إنكلترا، يتعلل في ذلك بأنهم يهود كفار، وفي الوقت نفسه ينتفع بأموالهم في الحروب الصليبية.

وكذلك الحال في كل اضطهاد تقريبًا نزل باليهود، الأصل فيه هو السياسة والوسيلة هي الدين؛ ولذلك نجد أن النظر الديني لليهود والنصارى يختلف باختلاف الزمان والمكان؛ أي باختلاف النظر السياسي، فقد قضت السياسة على عمر بن الخطاب أن يمحو النصرانية واليهودية من جزيرة العرب فمحاهما.

وقضت السياسة أيضًا على مسلمي الأندلس أن يتسامحوا مع النصارى فبلغ من تسامحهم — مع استثناء بعض نزعات التعصب — أن جعلوا يوم الأحد يوم البطالة، وأذنوا للمبشرين بالنصرانية بالوقوف على أبواب الجوامع لدعوة المسلمين إلى النصرانية، وكان أمراؤهم يتخذون هيئة الأمراء النصارى في اللباس ويصاهرونهم. وكذلك نرى من التسامح في مصر شيئًا كثيرًا، حين كان أمراء مصر وخلفاؤها يستوزرون الأقباط.

وقيمة هذا التسامح تزداد وضوحًا عندما نقابله بالمعاملة التي لاقاها المسلمون واليهود على أيدي الإسبانيين الذين استأصلوهم من إسبانيا بعد أن فتكت بهم محكمة التفتيش.

وفيما يلي سنذكر ثلاثة من خلفاء الإسلام؛ اثنان منهم من الطراز الأول في العدل كما يفهمه كل منهما، وواحد لا شك في هوسه، وسترى الآن أن ما يعزى من الاضطهاد للاثنين الأولين، وهما عمر بن الخطاب والمأمون، إنما هو أشبه بالاضطهاد السياسي منه بالاضطهاد الديني. وأما ما يعزى إلى الثالث، وهو الحاكم بأمر الله، فضرْب من الهوس، ولكن يبقى بعد ذلك أن هؤلاء الثلاثة اضطهدوا اليهود والنصارى، وتعلَّلوا بالدين باضطهادهم.

فقد كان عمر بن الخطاب يقصد إلى رَفْع شأن العرب، وتوثيق عُرى قوميتهم، فطرد اليهود والنصارى من الجزيرة، ثم أمر بعدم بناء كنائس جديدة أو ترميم ما تَهَدَّمَ، ومنع النصارى من إقامة الصلبان فوق الكنائس، كما منعهم من حمل كُتُبهم المقدسة في المواكب أو الأماكن العامة، وأجبرهم على تخفيض صوتهم عند الترتيل في الكنائس إذا كانت هذه الكنائس في حي يسكنه المسلمون، ومنعهم من إيقاد الشمع والمشاعل في المشاهد وقت تشييع الجنائز، وحرَّم عليهم محاولة تنصير مسلم، أو أن يَحُولوا دون إسلام نصراني، ومنعهم من أن يتخذوا هيئة المسلمين في اللباس، وحظر عليهم التسمي بأسماء عربية أو حمل السلاح، وكتب إلى عمرو بن العاص — والي مصر — يأمره بأن يختم في رقاب أهل الذمة بالرصاص، وأن تجز نواصيهم، وأن يركبوا عرضًا، وأن يظهروا زنانيرهم.

أما المأمون فإن شهرته بالعدل لا تقل عن شهرة عمر، وقد ذكر الكندي عنه قصة جرت بمصر وقت زيارته لها تدل على نظره للمخالفين للدين، فإنه عندما كاد يبلغ تخوم مصر الشرقية أنبئ بخروج المسلمين والأقباط في سمنود متحدين على الوالي؛ لفرط ما كابدوا من الجور، وما تحملوا من الضرائب الفادحة، فتغاضب المأمون وعنف الوالي، وحمَّله هو وجُباتُه اللوم كله، وتوعدهم بالعقاب القريب، وتعالم الناس بما فَاهَ به المأمون، وبلغ الثائرين ما قاله، وما توعد به الوالي وجباة الضرائب، فاتفقوا مسلمين وأقباطًا على أن يستأمنوا للمأمون وينزلوا على حكمه، فلما استأمنوا وسلموا سلاحهم عفا عن المسلمين، ثم قبض على جميع الأقباط رجالًا ونساءً — وهم يُعدون بالآلاف — فقتل جميع الرجال وباع النساء والصبيان.

بقي الحاكم الخليفة الفاطمي — الذي قُتل بالقاهرة سنة ١٠٢١م — وهو يختلف عن عمر والمأمون من حيث إن التاريخ يصفه بالهوس والسخافة بمقدار ما يصفهما بالعقل والحكمة، واضطهاده للأقباط في مصر أكثرُه هوسٌ؛ فإنه أمرهم بلبس ثياب الغيار، وشد الزنار في أوساطهم، ومنعهم من عمل الشعانين، وقبض على ما في الكنائس وأدخله على الإسلام، وعاملهم بغير ذلك من ضروب التشديد والعنف بما لم يقاس النصارى مثله من قبل في مصر.

فمن هوسه أنه أجبرهم على أن يعلِّقوا الصلبان من أعناقهم، طول الصليب ذراع ووزنه خمسة أرطال، وأجبر اليهود على أن يعلقوا من أعناقهم قرامي الخشب بوزن صلبان النصارى، وألا يركبوا شيئًا من المراكب المحلاة، وأن تكون ركبهم من الخشب، وألا يستخدموا أحدًا من المسلمين، ولا يركبوا حمارًا لُمكارٍ مسلم، ولعل معاملته لهم أعظم ما أصابهم من الاضطهاد مدة الحكم الإسلامي.

على أن معاملته للمسلمين لم تكن عادلة — وإن كانت دون الاضطهاد — فقد منعهم من أكل الملوخية والجرجير، ومنع النساء من التبرُّج، وأمر الخطباء بلعن السلف، ويقال إنه هو نفسه كَفَرَ بالإسلام، وحاول إقامة دينٍ جديد، وهو مؤسِّس دار الحكمة التي كانت تنشر الكفر والزندقة.

ولَمَّا اشتد اضطهاده للأقباط أسلم معظمُهم، فلما رجع عن اضطهاده أَذِنَ لهم في الارتداد فارتدوا.

ففي هذه الأمثلة الثلاثة نرى اضطهادًا صريحًا، ولكن لا يمكننا — مع الإنصاف — أن ننسب هذا الاضطهاد للإسلام، فإن معاملة عمر والمأمون للنصارى واليهود إنما كان تدفعهما إليها المصلحة القومية وسياسة الدولة، أما معاملة الحاكم فهوس لا غش فيه.

ويحسن بنا أن نختم هذا الفصل بهذه القطعة الآتية، التي نقلناها من تاريخ الأتراك لمحمد فريد بك عن محمد الفاتح ومعاملته للنصارى حين فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣؛ قال:

> ثم دخل السلطان المدينةَ عند الظهر، فوجد الجنود مشتغلة بالسلب والنهب، فأصدر أوامره بمنع كل اعتداء، فسادَ الأمنُ، ثم زار كنيسة أيا صوفيا، وأمر بأن يؤذَّن فيها بالصلاة؛ إعلانًا بجعلها مسجدًا جامعًا للمسلمين، وبعد تمام الفتح على هذه الصورة أعلن في كافة الجهات أنه لا يُعارض في إقامة شعائر ديانة المسيحيين، بل إنه يضمن لهم حرية دينهم وحفظ أملاكهم، فرجع من هاجر من المسيحيين، وأعطاهم نصف الكنائس، وجعل النصف الآخر جوامعَ للمسلمين، ثم جمع أئمة دينهم؛ لينتخبوا بطريقًا لهم، فاختاروا جورج سكولايوس.
>
> واعتمد السلطان هذا الانتخاب، وجعله رئيسًا لطائفة الأروام، واحتفل بتثبيته بنفس الأبهة والنظام، اللذين كان يُعمل بهما للبطارقة في أيام ملوك الروم المسيحيين، وأعطاه حرسًا من عساكر الإنكشارية، ومنحه حق الحكم في القضايا المدنية والجنائية بكافة أنواعها المختصة بالأروام، وعَيَّنَ معه في ذلك مجلسًا مشكَّلًا من أكبر موظفي الكنيسة، وأعطى هذا الحق في الولايات للمطارنة والقسوس، وفي مقابلة هذه فرض عليهم دفع الخراج، مستثنيًا من ذلك أئمة الدين فقط.

ابن حنبل وَخَلْق القرآن

في عصر المأمون والمعتصم — وهما من خلفاء الدولة العباسية — ظهر القول بخَلْق القرآن، وحُمل الناس على هذا القول، وضُرب المخالفون وعُذبوا، وكان ابن حنبل إمامًا عظيمًا من أئمة المسلمين، سُئِلَ عن رأيه في هذه البدعة فأنكرها، فضربه المعتصم وحبسه وعذبه وهو مُصِرٌّ، وبقي على إصراره حتى مات، وكان ابن حنبل يرى أن القرآن لم يحدَث في عهد النبي، وإنما هو خالد.

ولد ابن حنبل سنة ٧٨١ ومات سنة ٨٥٦م، وكان إمام المحدِّثين، صنَّف كتاب المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره، وكان من أصحاب الإمام الشافعي وخواصه، ولم يزل مصاحبه إلى أن ارتحل الشافعي إلى مصر، وقال في حقه: «خرجت من بغداد وما خلفت أتقى ولا أفقه من ابن حنبل …» وكان شديد الاتباع للسنن، أخذ عنه كثيرون من الأئمة، وطاف ابن حنبل في بلاد كثيرة، ودخل مكة والمدينة، والشام واليمن، والكوفة والبصرة والجزيرة، وقبره ببغداد مشهور.

قال الدميري: «إن القول بخلق القرآن ظهر في أيام الرشيد، وكان الناس فيه بين أخذ وترك إلى زمن المأمون، الذي حمل الناس على القول بخلق القرآن، وكل من لم يقل بخلق القرآن عاقبه أشد عقوبة، وكان الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة من الممتنعين عن القول بخلق القرآن، فحُمل إلى المأمون مقيدًا، ومات المأمون قبل وصوله إليه.»

وتولى المعتصم بعد المأمون، وكان ابن حنبل بالسجن، وكان المأمون قد عهد إلى أخيه المعتصم بالخلافة، وأوصاه بأن يحمل الناس على القول بخلق القرآن، واستمر الإمام أحمد محبوسًا إلى أن بُويع المعتصم، فَأُحْضِرَ إلى بغداد، وعقد له المعتصم مجلسًا للمناظرة «فيه عبد الرحمن بن إسحاق، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد وغيرهما» فناظروه ثلاثة أيام، ولم يزل معهم في جدال إلى اليوم الرابع، فأمر بضربه، فضُرب بالسياط، ولم يزُل عن الصراط

إلى أن أغمي عليه، ونخسه عجيف بالسيف، ورمى عليه بارية، وديس عليه، ثم حُمل وصار إلى منزله، وكانت مدة مكثه في السجن ثمانية وعشرين شهرًا.

ولم يزل بعد ذلك يحضر الجمعة والجماعات، ويُفتي ويحدِّث إلى أن مات المعتصم، وولي الواثق فأظهر ما أظهره المأمون والمعتصم من المحنة، وقال للإمام أحمد: لا نجمعن إليك أحدًا ولا تسكن في بلد أنا فيه، فأقام الإمام أحمد مختفيًا لا يخرج إلى صلاة ولا غيرها حتى مات الواثق، وولي المتوكل فرفع المحنة، وأمر بإحضار الإمام أحمد وإكرامه وإعزازه، وأطلق له مالًا كثيرًا، فلم يقبله، وفرَّقه على الفقراء والمساكين.

ومن الحكاية التالية نفهم معنى القول بخلق القرآن:

> حكي أن الإمام الشافعي — رضي الله عنه — لما كان بمصر رأى سيد المرسلين ﷺ وهو يقول: بَشِّرْ أحمد بن حنبل بالجنة على بلوى تصيبه، بأنه يدعى إلى القول بخلق القرآن فلا يجيب إلى ذلك، بل يقول: هو منزَّل غير مخلوق.

قال الدميري:

> إن المعتصم كان يخلو به — أي بابن حنبل — ويقول له: ويحك يا أحمد! أنا — والله — عليك شفيق، وإني لَأُشفق عليك مثل شفقتي على ابني … فأجبني، فوالله لئن أجبتني لأُطلقن غلك بيدي، ولأطأن عتبتك، ولأركبن إليك بجندي؛ فيقول: يا أمير المؤمنين أعطوني شيئًا من كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ فإذا طال به المجلس ضجر وقام، ورد أحمد إلى المكان الذي كان فيه.
>
> وتتردد إليه رسل المعتصم يقولون: يا أحمد! أمير المؤمنين يقول لك: ما تقول في القرآن؟ فيرد عليهم كما رد أولًا، فلما كان اليوم الثالث طُلب للمناظرة، فأُدخل على المعتصم وعنده محمد بن عبد الملك الزيات، والقاضي أحمد بن أبي دؤاد، فقال المعتصم: كلِّموه وناظروه، فلم يزالوا معه في جدل إلى أن قالوا: يا أمير المؤمنين اقتلْه ودمه في أعناقنا، فرفع المعتصم يده، ولطم بها وجه الإمام أحمد، فخر مغشيًّا عليه، فتمعرت وجوه وفود خراسان، وكان عم أحمد فيهم، فخاف الخليفة منهم على نفسه، فدعا بماء ورَشَّ على وجهه، فلما أفاق من غشيته رفع رأسه إلى عمه وقال: يا عم لعل هذا الماء الذي رُشَّ على وجهي غصب عليه صاحبه.

فقال المعتصم: ويحكم أما ترون ما يتهجم به علي هذا؟ وقرابتي من رسول الله ﷺ لا رفعت السوط عنه حتى يقول: القرآن مخلوق، ثم التفت إلى أحمد وأعاد عليه القول، فرد أحمد كالأول، فلم يزل كذلك حتى ضجر وأطال المجلس، فعند ذلك قال: عليك لعنة الله، لقد طمعت فيك قبل هذا ... خذوه واخلعوه واسحبوه، فأخذ وسحب ثم خلع، ثم قال المعتصم: السياط ... وشدوا يديه فتخلعتا، ولم يزل أحمد يتوجع منها حتى مات، ثم قال المعتصم للجلادين: تقدموا، ونظر إلى السياط فقال: ائتوا بغيرها.

وتناوبه الجلادون بالضرب، وجعل بعضهم يقول: يا أحمد إمامك على رأسك قائم فأجبه، وعجيف ينخسه بالسيف ويقول: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم؟! وبعضهم يقول: يا أمير المؤمنين اجعل دمه في عنقي.

وضُرِبَ ثمانية عشر سوطًا، وحُمِلَ إلى حجرة، ثم وجه المعتصم رجلًا ينظر الضرب والجراحات ويعالجه، فنظر إليه وقال: والله لقد رأيت من ضرب ألف سوط فما رأيت أشد ضربًا من هذا، ثم عالجه، وبقي أثر الضرب بينًا في ظهره إلى أن مات.

قال الدميري:

ثم قام بالأمر بعد المعتصم ابنه هارون الواثق بالله، ولما ولي قتل أحمد بن نصر الخزاعي على القول بخلق القرآن، ونصب رأسه إلى الشرق، فدار إلى القبلة، فأجلس رجلًا معه رمح أو قصبة فكان كلما دار الرأس إلى القبلة أداره إلى الشرق.

ولم يقتل بعد الخزاعي أحد، فقد أصر ابن حنبل على دفاعه عن حقه في اعتقاده، واستشهد الخزاعي في سبيل ذلك، وانتهت الحال بانتصار الناس في معركة صغيرة من معارك الحرية الفكرية.

الإسلام والفنون والعلوم

كان المسلمون إحدى حلقات الاتصال بين الإغريق القدماء وأوروبا الحديثة، نقلوا علوم الإغريق وفلسفاتهم إلى العربية، إما من الإغريقية مباشرة وإما من السريانية، وامتاز العرب عن الإغريق بنزعة علمية في العلوم، كان أساسها وغايتها إحالة المعادن الخسيسة إلى ذهب، وقد اشتغل الإغريق بالعلوم ولكن نزعتهم فيها كانت نظرية — إذا استثنينا أرسطوطاليس وأرشميدس — ولذلك اتجه نشاط الإغريق إلى ما يوافق هذه النزعة في الأدب والفلسفة، ولكن المسلمين عمدوا إلى التجارب بالنار والبوتقة، فعرفوا أشياء ثمينة في الكيمياء، وقد انتفعت أوروبا بما احتفظ به العرب من كتب الإغريق كما انتفعت أيضًا بتلك النزعة التجريبية العلمية التي اتسم بها كيميائيو العرب.

وانتفعت أوروبا من العرب بالنزعة الرومانتيكية الخيالية Romantic التي هي أصل القصص الحديثة، فقد كانت قصص الحب والأشعار الغزلية منتشرة بين عرب الأندلس، فلما انتقلت إلى أوروبا في جنوب فرنسا أحدثت تلك الحركة الرومانتيكية الخيالية، التي يتسم بها جزء كبير من الأدب الأوروبي الحديث.

يتبين للقارئ من ذلك أن أوروبا كانت مدة القرون الوسطى في ظلام الجهل، وأن العرب في ذلك الوقت كانوا في حركة علمية صحيحة الوسائل مخطئة الغاية، وفي حركة فلسفية تجديدية قائمة على إيجاد الفلسفات الإغريقية السابقة.

وقد كان «فم الذهب» بطريك القسطنطينية يفخر في القرن الرابع بأنَّ كتب القدماء الوثنيين قد زالت من الأرض، فلما كان القرن الثامن كان المسلمون في بغداد ينفقون الأموال الجمة في نقل هذه الكتب إلى لُغتهم، ويفخرون بالعلم والعلماء.

هذا من حيث العلم والفلسفة، فإن رجال الدين بين المسلمين لم يعارضوها إلا قليلًا — كما سنرى بعد — أما من حيث الأدب وفنونه جميعها فإن العرب قصروا تقصيرًا شنيعًا، وبعض هذا التقصير قد يرجع إلى الدين الذي قيدهم، ومنعهم من الانبعاث لمطالبه.

وقبل أن نتكلم عن الأدب يجب أن نقول: إن الدين أيضًا أو الخلافة جعلت الطب أسخف لعبة لعب بها العرب في تاريخهم، فقد منعوا التشريح، واعتبروه مُثلة يحرمها الدين، فلم يعرف أطباء العرب شيئًا عن جسم الإنسان، ووقفت معارفهم عند حد القول بما قال جالينوس وقال أبوقراط، وصار علم الطب بذلك أشبه شيء بعلم الحديث، حتى لقد حفزت الغزيرة العلمية أحد الأطباء النصارى في العراق بأن يعرف شيئًا عن الجسم، فاشترى قردًا، وأخذ يشرحه ويدرس الأعضاء بتشريحه قانعًا من الأصل بالبدل، ويمكن القارئ أن يستنتج أن «التشخيص» الذي لا تمكن المعالجة بدونه كان مجهولًا عند أطباء العرب.

أما الأدب فإن العرب تقيدوا من البدء بالقرآن، فلم ينقلوا شيئًا من الأدب الإغريقي للإشارات الوثنية التي فيه عن الآلهة والمعابد، ثم كانت الروح البدوية سائدةً أيضًا فقُوطعت الفنون الجميلة؛ لأن البدوي يكره — بطبيعته — جميعَ ضروب الترف والحضارة، وهو نفسه يعيش في صحراء، لا يحتاج إلى فُنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش؛ ولذلك حرم التصوير كما حرمت صناعة التماثيل، وصار الغناء والموسيقى لهوًا يتلهى به السكارى، وبلغ من احتقارهما أن منعت شهادة المغني والموسيقِي أمام القاضي. وقد اكتسبنا نحن — بحكم التقاليد — شيئًا من هذا النظر للموسيقَى والغناء؛ فمعظم من يذهب منا لسماعها يحتاج إلى الشراب.

وعاد الأدب العربي بعد ذلك يجتر نفسه، ويعيش على الألفاظ والصنعة، وجرى به ذلك القدر الذي جرى على الفنون البيزنطية حين هجرت الحياة، واعتمدت على الصنعة، فصارت مسخًا من الحياة، وتدهور الغناء والرقص والموسيقى إلى ضروب من الخلاعة والتخنُّث، لا يستطيع رجلٌ له كرامة الرجال أن يشاهدها بلا اشمئزاز، دع عنك ممارستها.

ولكننا نعود فنقول: هل تحريم التصوير وصناعة التماثيل يعود إلى تفاسير الفقهاء للإسلام أم يعود إلى الروح البدوية التي كان يتسم بها العرب؟ وقد نُجيب على ذلك بأن هؤلاء الفقهاء كانوا هم أنفسهم عربًا شديدي النزوع إلى البداوة.

الغزالي والحرية الفكرية

ليس في مستطاع مؤلف أن يجرِّد نفسه من الغرض؛ ولذلك يحسن بنا ألا نحكم على الإسلام ومقدار تقييده للحرية، وإنما نترك هذه المهمة لإمام كبير من أئمته … وهذا الإمام هو الغزالي، الذي مات سنة ٥٠٥هـ؛ فإن كتابه «إحياء علوم الدين» قد مضى نحو ٩٠٠ سنة وهو عمدة رجال الدين المسلمين، لم يطعن عليه أحد.

والرجل أيضًا يمتاز بصراحته وإخلاصه ونزاهته، فإنك عندما تقرأ حياتَه تشعر أنه لا يوارب، وأنه لو دخله شك لَما تحرج من إعلانه ولو كان فيه تلفه، فهو إذا وضح لنا الإسلام فإنما يوضحه كما يفهمه رجل مؤمن به تمام الإيمان، وسنعتمد على الاقتباس من نص كلامه أكثر ما نعتمد على الشرح؛ حتى لا نخطئ بالتأويل.

وقد كانت تتنازع الإسلام في الوقت الذي نشأ فيه الغزالي نزعتان:

الواحدة سُنِّية ومكانها بغداد، ومركز ثقافتها المدرسة النظامية، والأُخرى شيعية ومكانها الأزهر في القاهرة، ونشأ الغزالي فوجد العالم الديني مقسومًا تتنازعه هاتان النزعتان، وتتهجم عليه نزعات فلسفية قوية، بعضها مشوبٌ بالزندقة السياسية التي ترمي إلى هدم كيان الإسلام، وتعلَّم الغزالي في المدرسة النظامية في بغداد، ثم صار هو نفسه مدرسًا فيها، وإليك ما يقوله عن نفسه مما يكشف شيئًا من مجاهدات ضميره:

> لم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن — وقد أناف السن على الخمسين — أقتحم لُجَّة هذا البحر العميق، وأخوض غمراته خوض الجَسور، لا خوض الجبان الحَذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأقتحم كل ورطة، وأتفحَّص عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرارَ مذهب كلِّ طائفة؛ لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع. لا أغادر باطنيًّا إلا

> وأحب أن أطلع على بطانته، ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيًّا إلا وأقصد الوقوف على كُنْه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سر صوفيته، ولا متعبدًا إلا وأرصد ما يرجو إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتجسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.
>
> وقد كان العطش إلى إدراك حقائق الأمور دأبي وديدني — من أول أمري وريعان عمري — غريزة وفطرة من الله تعالى، وضعها في جِبِلَّتِي لا باختياري وحيلتي، وحتى انحلت عني رابطة التقليد، وانحسرت عني العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا.

وقلنا: إنه اشتغل بالتدريس، ولكن نفسه الدينية طمت به فآثر نوعًا من الرهبانية، فترك الأهل والولد والناس وأحوال الدنيا جميعها، وعمد إلى العزلة يناجي فيها ربه، وإليك ما يقوله عن هذه المجاهدة النفسية:

> ثم لاحظت أحوالي فإذا أنا منغمسٌ في العلائق، وقد أحدقت بي من جميع الجوانب، ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكَّرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثُها ومحرِّكها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني قد أشرفت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعدُ على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يومًا وأحل العزم يومًا، وأقدم فيه رِجْلًا وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملته فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تُجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل! الرحيل! فلم يبق من العمر إلا القليل.

ثم يقول: «فلم أزل أتردد بين تجاذُب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة قريبًا من ستة أشهُر، أولها رجب سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار؛ إذ قفل الله على لساني حتى أعتقل عن التدريس، فكان لا ينطق لساني

بكلمة ولا أستطيعها البتة، ثم أورثت هذه العقلة في اللسان حزنًا في القلب، بطلت معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب.»

وهذا كلام يقطر منه الإخلاص والنزاهة، ومع ذلك لم يكن الغزالي وليًّا أبله يتمسح به الناس، ويلبس المرقعات ويتواجد بالصيحات، بل كان رجلًا مثقفًا ذكيًّا، درس المنطق والفلسفة، وأكب على فهم الإنجيل والتوراة، فهو إذا شرح الإسلام فإنما يشرحه على الوجه الذي يجب أن يفهم عليه، وهو إذا حكم بتكفير أحد من المسلمين فإنما يفعل ذلك مدفوعًا بقوة إيمانه.

وماذا كان أثر هذا العالم المسلم في الشرق العربي؟ كان أثره أنه قاوم الفلسفة حتى هدمها، وكفَّر جميع من يدرسها، وكان بعد ذلك أقوى أساس بُنِيَ عليه اضطهاد الفلاسفة والمفكرين، حتى انتقلت الفلسفة من الشرق إلى الغرب؛ أي إلى الأندلس، وليس يمكنك أن تنقم شيئًا على الغزالي من هذه الوجهة سوى أنه كان ينظر نظرًا دينيًّا ضيقًا.

فإليك مثلًا ما يقول عن الطبيعيين: «والطبيعيون قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة، وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الحوض في علم تشريح أعضاء الحيوان؛ فرأوا فيها من عجائب صنع الله وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطرٍ حكيم مطلع على غايات الأُمور ومقاصدها، ولا يطالع التشريح ومنافع الأعضاء مُطالعٌ إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان — ولا سيما الإنسان — إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثيرٌ عظيم في قوى الحيوان، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعةٌ لمزاجه أيضًا، وأنها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم، ثم إذا انعدمت فلا يعقل إعادة المعدوم — كما زعموا أيضًا — فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود، فجحدوا الآخرة، وهؤلاء أيضًا زنادقةٌ؛ لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله وبالرسول وباليوم الآخر.»

ومن هذه القطعة يرى القارئ أن الغزالي يفهم ما يقول تمام الفهم، ويحكم على من يخالفه في رأيه الديني بالزندقة، ويجزم في حكمه، والمسافة بين الحكم بالزندقة والحكم بالقتل قريبة جدًّا.

وقد عاش الغزالي بعد أرسطوطاليس بنحو ١٤٠٠ سنة، ومع ذلك لم يبخل عليه بالتكفير، وعلى كل من اتبعه من فلاسفة المسلمين، وإليك منه هذه القطعة: «ثم رد أرسطوطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين ردًّا لم يقصر فيه حتى تبرأ من جميعهم، إلا أنه استقى أيضًا من رذائل كفرهم بقايا لم يوفق للنزوع منها، فوجب تكفيره وتكفير متبعيه من متفلسفة الإسلاميين كابن سينا والفارابي وأمثالهم.»

ومن هذا تتبين أن إخلاص الغزالي وذكاءه لم ينفعاه شيئًا عندما اقتصر على النظر الديني الضيق، وأنه لو كانت مقاليد الأحكام في يده لَما تحرج مِن قتل مَن سماهم زنادقة.

ثم إليك الآن النظر الديني لما نسميه نحن بالفنون الجميلة كما يفهمه الغزالي، قال:

> وليتجنب «المسلم» صناعة النقش والصياغة وتشييد البنيان بالجص، وجميع ما تزخرف به الدنيا، فكل ذلك كرهه ذوو الدين.

وأيضًا: «والصور التي تكون على باب الحمام، أو داخل الحمام — تجب إزالتها على كل من يدخله إن قدر، فإن كان الموضع مرتفعًا لا تصل إليه يده فلا يجوز له الدخول إلا لضرورة، وليعدل إلى حمامٍ آخرَ؛ فإن مشاهدة المنكر غير جائزة، ويكفيه أن يشوِّه وجهها، ويبطل به صورتها.»

والآن، يجب أن نقف — أيها القارئ — ونتأمل في الآثار التي أتلِفت اطرادًا مع هذه النزعة البدوية أو اتباعًا لهذه النصيحة، ثم نذكر أيضًا مقدار التثبيط الذي أصاب كل من كان متهيئًا بطبعه لخدمة الفنون وترقيتها، وإذا كان الغزالي — على إخلاصه وفهمه — يقول هذا القول في الفنون الجميلة، وفي الفلسفة؛ فماذا يقول الآخرون من رجال الدين الذين لعلهم لم يبلغوا مبلغه في الفهم والنزاهة أو الثقافة؟!

حرية التصوف وقتل الحلاج

الدين دينان: دين رسمي تقليدي، ينفذ إلى القلب أو يطفو على اللسان بقوة سلطة خارجية، يؤيدها السيف أو العادة، ودين ضميري، ينبع من القلب، يقرر صلة الإنسان بالكون.

فالدين الأول له أسماء عديدة من يهودية وبوذية ومسيحية وإسلام.

والدين الثاني له اسم واحد هو الصوفية.

والصوفية العربية لا تختلف عن الصوفية الهندية القديمة أو عن الصوفية الأوروبية الحديثة في شيء، والمعقول أنها يجب ألا تختلف؛ لأنها لم تنشأ على أُصول تاريخية تستمد وحيها من الوسط الزماني والمكاني فتختلف باختلاف الجغرافية والتاريخ، وإنما تنشأ من وحي الذهن، وتستصفى من حوار العقل والمنطق، فإذا كان العقل في الهند ومصر وأميركا يقول بأن خمسة وخمسة تساوي عشرة فإنه يقول أيضًا باستنتاجات صوفية واحدة لا يختلف فيها.

وعندما احتك المسلمون بالهنود والفرس، وعرفوا فلسفة أفلاطون؛ نَزعت أفكارهم إلى الصوفية، وتسربت هذه النزعة إلى أئمة الدين، وصبغت الفلسفة الإسلامية.

ويمكننا أن نلخص الأفكار الصوفية السائدة فيما يلي:

(١) أن الله ليس شخصًا خارجًا عنا، بل هو قوة تشمل الكون، وأنه يمكننا نحن بمجاهدة الشهوات التي تربطنا بالمادة أن نتصل بهذه القوة، فتحل في أنفسنا، وتكشف لنا بذلك أسرار الكون.

(٢) أن بني الإنسان كلهم إخوة؛ لأنهم كلهم يعبرون عن هذه القوة الحالة فيهم، فصلة التعامل بينهم يجب أن تكون صلة الحب لا المنافسة أو النزاع.

وعلى هذين الأصلين نجد أن ابن سينا يقول مخاطبًا الإنسان:

وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

والمسيح يقول: «لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون: هوذا ههنا أو هوذا هناك؛ لأن ها ملكوت الله داخلكم.»

ويقول محيي الدين بن عربي الصوفي الأندلسي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلًا كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني

ويحسن بنا أن ننقل قطعة وافية من كتب براهمة الهندوكيين؛ حتى يقف منها القارئ على أصل النزعات الصوفية في الإسلام، فقد جاء في صوامي فيفيكا ناندا:

> كيف يبتئس ذلك الذي يرى وحدة الوجود، وحدة الحياة، وحدة كل شيء؟
>
> إلا أن هذا الانفصال بين الرجل وأخيه، وبين الرجل والمرأة، وبين الرجل والطفل، وبين الأمة والأمة، وبين الأرض والقمر، وبين القمر والشمس، هذا الانفصال بين الذرة والذرة؛ هو علة كل الشقاء، وقد قالت الفيدانتا: إن هذا الانفصال لا وجود له ولا حقيقة له، إنما هو يبدو على السطح فقط، أما في قرارة الأشياء فليس سوى الوحدة، وإذا أنت تغلغلت إلى قرارة نفسك وجدت الوحدة بين الإنسان والإنسان، وبين المرأة والطفل ... وبين العالي والداني، وبين الغنيِّ والفقير، وبين الآلهة والناس، إنهم كلهم واحد، وإذا ما تعمقت ألفيت الوحدة أيضًا في الحيوان، ومن وصل إلى هنا فقد انقشعت عندئذ عنه الغشاوة.
>
> إذ كيف يغشى على بصيرته؟ فإنه يعرف حقيقة كل شيء وسر كل شيء، وكيف يناله شقاء؟ إذ ماذا يرغب، وقد وصل إلى قرارة كل شيء حتى الله؟ ذلك المركز، تلك الوحدة، وهذه هي النعمة الأبدية والمعرفة الخالدة والوجود

الدائم، ففي هذا المركز وفي هذه الحقيقة لا يمكن أن نحزن على أحد، ولا أن نرثي لأحد.

وعندما يرى المرء أنه هو والكائن الذي لا يتناهى واحد، وعندما تنعدم هذه الانفصالات، وينعدم الناس والملائكة والحيوان والنبات في هذه الوحدة؛ فعندئذ يزول كل خوف؛ إذ ماذا نخشى ونخاف؟ هل في قدرتي أن أقتل نفسي أو أُوذي نفسي؟ هل في قدرتك أن تؤذي نفسك؟

فهنا تزول جميع الأحزان؛ إذ ماذا يولد الأحزان؟ فأنا الكائن الواحد، فأنا الكائن الوحيد في الوجود، وهنا تزول جميع الأحساد؛ إذ من أحسد؟ هل أحسد نفسي؟ فليس في الكون كله غيري أنا، فلنقضِ إذن على هذا التفريق، على تلك الخرافة التي تقول بتعدُّد الكائنات!

وانتشرت هذه الأفكار الصوفية بين المسلمين، ونشأت فرق إسلامية عديدة غايتها التوفيق بين المذاهب الإسلامية والنزعات الصوفية، وامتزجت الأغراض السياسية بالأغراض الدينية، وصارت الدولة تنشأ وتهدم بقوة هذه الفرق.

ورأى خلفاء بغداد أن المبالغة في التصوف خروجٌ من الإسلام، وزعزعة للدولة القائمة عليه، فكانوا لذلك يضطهدون المتصوفين.

ولنضرب مثالًا على ذلك معاملة الخليفة المقتدر للحلاج.

فقد ذكر ابن خلكان ترجمة الحلاج، ونحن نقتضبها عنه فيما يلي:

قال: هو من أهل البيضاء، وهي بلدة بفارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره، والناس في أمره مختلفون: فمنهم من يبالغ في تعظيمه، ومنهم من يكفره.

ورأيت في كتاب مشكاة الأنوار قوله: «ما في الجبة إلا الله» وهذه الاطلاقات التي ينبو السمع عنها وعن ذكرها وحملها كلها على محامل حسنة وأوَّلها … وكان جده مجوسيًّا، وصحب أبا القاسم الجنيد ومن في طبقته، وأفتى أكثر علماء عصره بإباحة دمه.

ويقال: إن أبا العباس ابن سريج كان إذا سئل عنه قال: «هذا رجل خفي عني حاله وما أقول فيه شيئًا»، وكان قد جرى منه كلام في مجلس حامد بن العباس وزير المقتدر بحضرة القاضي أبي عمر، فأفتى بحل دمه، وكتب خطه

بذلك معه من حضر المجلس من الفقهاء، فقال لهم الحلاج: «ظهري حمى ودمي حرام، وما يحل لكم أن تتقولوا علي ... وأنا اعتقادي الإسلام، ومذهبي السنة، وتفضيل الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين وبقية العشرة من الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين — ولي كتب في السنة؟! فالله الله في دمي.»

ولم يزل يردد هذا القول وهم يكتبون خطوطهم إلى أن استكملوا، ونهضوا من المجلس، وحمل الحلاج إلى السجن، وكتب الوزير إلى المقتدر يخبره بما جرى في المجلس ... فعاد جواب المقتدر بأنه إذا كان قد أفتى القضاة بقتله فليسلم إلى صاحب الشرطة، وليتقدم إليه بضربه ألف سوط، فإن مات من الضرب وإلا ضربه ألف سوط أخرى، ثم يضرب عنقه، فسلمه الوزير إلى الشرطي، وقال له ما رسم به المقتدر.

وقال: إن لم يتلف فتقطع يده ثم رجله، ثم تحز رقبته، وتحرق جثته، وإن خدعك وقال لك: أنا أُجري الفرات ودجلة ذهبًا وفضة فلا تقبلْ ذلك منه، ولا ترفع العقوبة عنه.

وتسلمه الشرطي ليلًا، وقتله سنة تسع وثلاثمائة هجرية.

وسيرى القارئ أن السهروردي قُتل بفتوى الفقهاء في حكم صلاح الدين لصوفيته أيضًا.

الثورة على الإسلام

نرى في تاريخ الفرق الإسلامية من حيث منشئها وأغراضها، أنها تنقسم قسمين: فمنها تلك الفرق التي لم تكن ترمي إلى أبعدَ من الغاية الدينية والتصوف، وتتغذى من الأديان الأخرى، كالمسيحية والمانوية والفلسفات الإغريقية.

ومنها تلك الفرق الأخرى التي تسترت بالدين، وكانت ترمي منه إلى غاية سياسية؛ لأن دعاتها عرفوا أن الدعاية السياسية إذا لم ترتكز على دعائم الدين لم تثبت أمام الخلافة.

ولكننا نرى شيئًا عجيبًا في بعض هذه الفرق، وهي أنها نزعت إلى الإلحاد وإلى هدم الإسلام؛ فالقرامطة لا يمكن أن نشك في أنهم أرادوا هدم الإسلام حين عاثوا في دولة العباسيين في العراق، وحين هدموا الكعبة، ونقلوا الحجر الأسود من مكانه.

وكذلك لا يكاد يشك الإنسان في أن دار الحكمة، التي أسسها الحاكم بأمر الله بالقاهرة، كانت تعلم الناس الإلحاد، ولكن — مع تسليمنا بذلك — يبقى عندنا شك في النية الباعثة لتعلُّم الإلحاد، فإذا كانت هذه النية سياسية غايتها تأسيس دولة، فإنه لا يكاد يُعقل أن هناك رجلًا ينوي تأسيسَ دولةٍ على أساس من الإلحاد؛ لأن الدين يدعم الدولة والإلحاد يهدمها. وإذا فرضنا أن القرامطة أرادوا الهدم، واعتمدوا على الإلحاد؛ فكيف نعلل تأسيس دار الحكمة بالقاهرة ومؤسسها خليفة، خلافتُه قائمةٌ على هذا الدين الذي يريد أن يهدمه؟!

إننا نعقل أن يدعو إلى الإلحاد رجل فارسي، تدعوه وطنيته — مثلًا — إلى الثورة على العرب والإسلام معًا، فيريد هدم الخلافة، ونشر الفوضى الدينية؛ حتى تجد الفرس مجالًا لاستعادة قوميتها، وهذا ما نظن أنه قصد إليه عبد الله بن ميمون القداح، الذي ظهر بفرقته أيام العباسيين، ونعقل أيضًا أن تعمل دولة الفاطميين في مصر على هدم

دولة العباسيين في بغداد، ولكن بشرط ألا تهدم الأسس القائمة هي نفسها عليه، وهو الإسلام.

وموضوع الفرق الإسلامية لا يزال غامضًا لم يُمحص للآن؛ ولذلك سنقنع فيما يلي برواية الواقع دون أن نبحث عن العلل والبواعث.

فالواقع أنه ظهرت بمصر وسوريا والعراق فرقٌ عديدة، كافحت سرًّا وجهرًا بالسيف وبغير السيف؛ لكي ترفع سلطان الحرية الفكرية، وتهدم أساس الدين، ومعظم هذه الفرق كانت تتستر بمذاهب الشيعة؛ للحظوة التي ينالها — على الدوام — علي بن أبي طالب في قلوب المسلمين.

وكان عبد الله بن ميمون القداح أول من دعا إلى تأسيس فرقة لهدم الدين، وكان أبوه ملحدًا، يحارب الإسلام سرًّا بتزييف الأحاديث، ولهذه الغاية أنشأ عبد الله فرقة الباطنية، وأدمج في مذهبها شيئًا كثيرًا من عقائد الفرس المانوية: «النور فاعل الخيرات والمنافع، والظلام فاعل الشرور والمضار.»

قال دوزي عن ابن ميمون: إنه أراد أن يدمج المغلوبين والغالبين في هيئة واحدة، وأن يجمع في جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة بين أحرار المفكرين — الذين لا يرون في الدين سوى وسيلة لإذلال الشعب — وبين الغلاة من جميع الطوائف، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التي شادوها، ولم ينشد ابن ميمون أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخُلص، وإنما بين المانويين والوثنيين والمتفلسفة، ولم يكن يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضي بسره، وخَفِيِّ عقيدته وهي أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالًا وسخرية، وأن باقي البشر — أو الحمر كما يسميهم — ليسوا أهلًا لفهم هذه التعاليم.

غير أنه؛ تحقيقًا لغايته لم يكن يمقت مؤازرتهم بل كان يلتمسها، وكان دعاته — الذين تعلموا كيف يُخفون عواطفهم الخاصة — يَظهرون في أثواب مختلفة، ويحادثون كل طبقة باللغة التي تروقها، أو يثيرون استطلاعهم بالألغاز والأحاديث الخفية، ويتحجبون أمام المخلصين بقناع الزهد والفضيلة، ويتظاهرون أمام الصوفية أنهم صوفية، فيكشفون عما خفي من معاني الغيب، أو يشرحون الأساطير ومجازاتها.

وأسفرت هذه النظم عن نتيجة مدهشة، هي أن جمهورًا عظيمًا من الناس يعتنقون مذاهب مختلفة كانوا يعملون معًا لتحقيق غاية لا يعلمها سوى القليل منهم.

وكان عبد الله بن ميمون يرمي إلى هدم الدين بالسر والتستر، ولكن فرقة القرامطة التي تكونت من أتباعه عمدت إلى الجهر والعلانية، فألفت عصابة قوية عاثت في الدولة

العباسية، واستباح أعضاؤها السفك والنهب، واستحلوا الأموال والأعراض، واقتحموا البيت الحرام، ونزعوا كسوته، واقتلعوا الحجر الأسود، وأسسوا دولة في البحرين عاشت زمنًا غير طويل؛ لأن العباسيين تغلبوا عليها، واستظهروا عليهم بالدين.

وانتشر دعاة ابن ميمون في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتى يقال إن عبد الله مؤسس الدولة الفاطمية في مصر ينتمي في النسب إليه، وإذا صح هذا النسب فلا يستبعد من الحاكم بأمر الله أن يؤسس «دار الحكمة» يعلم فيها الناس الإلحاد، وهو النسب الذهني بينه وبين ابن ميمون.

ولكن العقبة لا تزال ماثلة؛ فإن الدولة التي تنشر الإلحاد بين الناس هي دولة «فاطمية» شيعية، أساسها إكبار شأن أسرة النبي، فكيف يتفق القول بأن الأنبياء لم ينزل عليهم وحي، ولا هم يمتازون من الناس بصلة خاصة بالله؛ والقول بحق الفاطميين في الحكم؛ لأنهم من نسل النبي؟!

ولكن الواقع أن دار الحكمة كانت غايتها هدم سلطة الدين، وكان مؤسسها الحاكم بأمر الله، فهل نعزو تأسيسها إلى عرق الهوس الذي كان دائم النبض فيه، والهيجان عليه، ونقول: إنه طما به دفعة واحدة، وأجبره على أن يبوح بما أضمره سائر الخلفاء الفاطميين؟

كانت المراتبُ التي يتنقَّل فيها الطالب في دار الحكمة تسعًا، وكان الطلبة ينقسمون قسمين: العلماء والجهلاء، والعلماء هم الدعاة المعلمون.

فكان الطالب أول ما يدخل دار الحكمة يناقش في المسائل الدينية، وفي تفسير القرآن، ويعلن له حينئذ أن أسرار الدين أعوص من أن يفهمها جميع الناس، وأن الدعاة هم الذين اختصوا بذلك، ووقفوا على هذه الأسرار، ثم تؤخذ عليه العهود بألا يفشي شيئًا يسمعه منهم، فإذا انتهى من هذه المرتبة الأولى دخل في المرتبة الثانية، وفيها يعلم الطالب أن جميع التفاسير الذائعة بين الناس باطلةٌ، وأن التفسير الحق هو الذي يقول به الأئمة الذين تلقَّوْا حقائقها من الله.

وفي الثالثة يعرف الطالب أن هؤلاء الأئمة هم أئمة الإسماعيلية، وهي طائفةٌ من فرقة الباطنية التي أسسها عبد الله بن ميمون القداح.

وفي الرابعة يعرف أن الأنبياء سبعة هم: آدم ونوح وإبراهيم وموسى والمسيح ومحمد — نبي الإسلام — ثم محمد بن إسماعيل الإمام.

وفي الخامسة يصرح للطالب بالغاية الحقيقية من هذه التعاليم، وهي أن يترك الدين الإسلامي.

وفي السادسة يتوسع الطالب فيقال له: إن جميع الأديان كاذبة، وإن الفروض التي أمرت بها كالصوم والصلاة كذب وشعوذة، أريد بهما إخضاعُ الناس، وإن جميع الأديان يجب أن تخضع لشريعة العقل والعلم، ويعتمدون هنا على أقوال أرسطوطاليس وأفلاطون وغيرهما.

وفي السابعة يلقن الطالب تعاليم المانوية، التي تهدم وحدانية الله، وهي أقوى أساس للإسلام.

وفي الثامنة تنقض كل صفات الألوهية والنبوة، ويعلم الطالب أن الرسل الحقيقيين هم رجال الدولة والعمل والسياسة، الذين ينشئون الحكومات، ويؤسسون النظم المدنية للناس.

وفي المرتبة التاسعة والأخيرة يباح للطالب بأن كل الأديان المنزَّلة حديث خرافة، وأن للرجل المستنير الحق في أن يرفضها جميعًا، وأن الفلسفة تقوم مقام الدين، وأن الأنبياء إنما كانوا أُناسًا مستنيرين تفقَّهوا في الفلسفة.

وقد عاشت الدولة الفاطمية من سنة ٩٦٩ إلى سنة ١١٧١ ميلادية ماتت في نهايتها هذه النزعة الإلحادية؛ لأن دار الحكمة لم تعش بعد هذه الدولة، وعادت مصر سنية، يخطب خطباؤها في المساجد للخلفاء العباسيين.

بعد ذلك نرى أن مركز الدعاية للتفكير الحر قد انتقل من مصر إلى فارس؛ حيث نجد الحسن بن الصباح صديق عمر الخيام يبث تعاليم ابن ميمون والقرامطة ودار الحكمة، ونرى أن «نظام الملك» وزير العباسيين في بغداد، وصديق الحسن القديم يؤسس المدرسة النظامية؛ لكي يقاوم هذه التعاليم، ويؤيد السنَّة التي هي عمدة الخلافة العباسية، وقد زار الحسن دار الحكمة في مصر، واتصل بأساتذتها، وتفقَّه عليهم.

وتعاليمه خليطٌ من المانوية والفلسفة الإغريقية، وكانت فرقته تدعى الإسماعيلية أو الباطنية، وكان يعمد إلى هدم الخلافة بقتل ذوي السلطان الذين يؤيدونها، ويعملون لرفع شأنها، وعاشت فرقته نحو ١٥٠ سنة، وهي أكبر معول لهدم الإسلام والخلافة العباسية.

ولو أردنا التلخيص لقلنا: إن حركة الإلحاد في الإسلام نشأت في فارس، وربما كانت غايتها وطنية في الأصل بهدم الخلافة وملك العرب، والحركة مصبوغة على الدوام بالمانوية، وهي ديانة الفرس المنقرضة، واتخذتها الدولة الفاطمية في مصر سلاحًا لمحاربة الدولة العباسية في بغداد، ووقفت الحركة عن النمو والانتشار لغلو بعض دعاتها في

الحرية، حتى صارت إباحية، ولالتجاء بعضهم — مثل القرامطة — إلى وسائل العنف والاعتداء على الناس، حتى أجمعوا على مقاتلتهم وإبادتهم.

وقد يتساءل القارئ الآن: هل كانت هذه الفرق مخلصة في دعواها الإلحادية أم كانت ترمي إلى غاية سياسية فقط؟ فالجواب أن درسها فلاسفة الإغريق وديانات الفرس والمسيحيين يثبت إخلاصها، أما أنها كانت تنحو إلى تأسيس الدولة فليس في ذلك ما يزري بإخلاص أعضائها؛ فقد كانت السياسة غايةً من غايات المذهب الديني في دار الحكمة.

وكذلك لا يعيب الحركة انحطاطُ القرامطة، ونزوعهم إلى الصعلكة، وانتهاب الناس؛ فإن في كل حركة عمرانية نزعات تختلف رفعة وانحطاطًا، فالحركة الصوفية — مثلًا — تضم بين أعضائها العلماء والأفذاذ أمثال الغزالي، كما تضم بين صفوفها الدراويش المتوحشين أصحاب المرقعات، أكلة النار والمشعوذين بالسكاكين.

اضطهاد الفلاسفة

قال ابن سعيد — فيما رواه عن المقري — يصف مكان العالم في الأندلس: «وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لهما حظًّا عظيمًا عند خواصهم، ولا يتظاهر بها خوف العامة؛ فإنه كلما قيل: «فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيَّدت عليه أنفاسه، فإن زلَّ في شبهة رجموه بالحجارة، أو أحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان؛ تقرُّبًا للعامة.

وكثيرًا ما يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرَّب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن.»

وإحراق الكتب بالنار كان من الأُمور الفاشية المبتذلة في الأندلس، حتى كُتُب الغزالي نفسها لم تنجُ من الإحراق عندما بلغت الأندلس؛ لأنها لم تكن توافق المذاهب الشائعة في تلك البلاد، وكان ابن حزم أحد علماء الأندلس وأكثرهم تأليفًا، أخذ عليه الفقهاء بعض المآخذ، وأبلغوا المعتضد بن عباد أمير إشبيلية ما ينقمونه عليه فجمع كتبه وأحرقها، وفي ذلك يقول ابن حزم:

دعوني من إحراق رق وكاغد وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي تضمنه القرطاس إذ هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ويَنزل إنْ أنزلْ ويُدفن في قبري

ومات ابن حزم سنة ٤٥٦هـ، ويقال: إنه ألَّف نحو ٤٠٠ مجلد، لا نعرف الآن منها سوى واحد أو اثنين، وذهب الباقي طُعمة للنار.

وليس يتسع المقام لسرد أخبار العلماء الذين اضطُهدوا؛ لحريتهم الفكرية، وإنما نقنع باثنين أحدهما ابن رشد في الأندلس بقرطبة، والثاني السهروردي في سوريا بحلب.

كان ابن رشد فيلسوفًا، جدَّد فلسفة أرسطوطاليس، وقال بأزلية المادة، وأنكر خلود النفس، وألَّف كتاب «تهافُت التهافت» يردُّ فيه على كتاب الغزالي «تهافُت الفلاسفة» ويرفع شأن الفلسفة، ويبين مزاياها بعد أن قضى عليها الغزالي في الشرق قضاء لم تبعث منه للآن.

فكان لا بد من أن ينتبه الفقهاء إليه، وأبلغوا أمره للمنصور «ثم إن المنصور … نقم على أبي الوليد بن رشد، وأمره بأن يقيم في اليسانة — وهي بلدةٌ قريبة من قرطبة، وكانت أولًا لليهود — وألا يخرج منها.

ونقم أيضًا على جماعة أخرى من الفضلاء الأعيان، وأمر بأن يكونوا في مواضع أُخَرَ، وأظهر أنه فعل ذلك بسبب ما يدعى عليهم أنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل، وهؤلاء الجماعة هم أبو الوليد ابن رشد وأبو جعفر الذهبي … وبقوا مدة، ثم إن جماعة من الأعيان بإشبيلية شهدوا لابن رشد أنه على غير ما نسب إليه، فرضي المنصور عنه وعن سائر الجماعة.»

وماذا قال ابن رشد لكي ينجو من الفقهاء؟ قال: إن الحقيقة مزدوجة؛ فإننا يمكننا أن ننظر نظرًا دينيًّا فنؤمن بالبعث والخلق وخلود النفس، وسائر ما يقوله الدين، ونصدق كل ذلك، وترتاح إليه ضمائرنا، ويُمكننا أيضًا أن ننظر نظرًا علميًّا فلا نصدق إلا ما يثبت أمام حواسنا وعقلنا.

وهذا الكلام واضحُ الخلل؛ لأنه لا يقل عن قولنا بأن خمسةً وخمسةً عشرةٌ في الصباح فإذا كان الظهر كانت عشرين، والغريب أن هذا التمحل الذي أراد منه ابن رشد أن يحقن دمه عبر إسبانيا إلى فرنسا، فصار القول بازدواج الحقيقة فلسفة تدرس لطلبة الدين في باريس، إلى أن جحدها البابا يوحنا الحادي والعشرون.

ومات ابن رشد بمراكش كما اشتهى — حتف أنفه — سنة ١١٩٨، وهو شيخ في نحو السبعين.

أما السهروردي فحياته مأساة مختصرة، قُتل في السادسة والثلاثين، ومع ذلك نجهل الجريمة التي قُتل من أجلها، وكل ما نعرفه أن الفقهاء في حلب شكوه إلى صلاح الدين، واتهموه بالزندقة، فأمر صلاح الدين بقتله.

وإليك ما يقوله عنه ابن أبي أصيبعة: «كان أوحد في العلوم الحكمية، بارعًا في الأصول الفقهية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة، فصيح العبارة، لم يناظر أحدًا إلا بَذَّه، ولم يباحث محصلًا إلا أربى عليه، وكان علمه أكثر من عقله.»

وكان الشيخ فخر الدين يقول: «ما أذكى هذا الشاب وأفصحه! ولم أجد أحدًا مثله في زماني، إلا أني أخشى عليه؛ لكثرة تهوره واستهتاره وقلة تحفظه أن يكون ذلك سببًا لتلفه.»

قال: فلما فارقنا شهاب الدين السهروردي من الشرق، وتوجه إلى الشام — أتى إلى حلب، وناظر بها الفقهاء ولم يجارِه أحد، فكثر تشنيعهم عليه، فاستحضره السلطان الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، واستحضر الأكابر من المدرسين والفقهاء والمتكلمين؛ ليسمع ما يجري بينه وبينهم من المباحث والكلام، فتكلم معهم بكلام كثير، وبان له فضل عظيم وعلم باهر، وحسُن موقعه عند الملك الظاهر، وقرَّبه، وصار مكينًا عنده مختصًّا به، فازداد تشنيع أولئك عليه، وعملوا محاضر بكفره، وسيَّروها إلى دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين.

وقالوا: إن بقي هذا فإنه يفسد اعتقاد الملك الظاهر، وكذلك إن أُطلق فإنه يفسد أي ناحية كان بها من البلاد، وزادوا عليه أشياء كثيرة من ذلك، فبعث صلاح الدين إلى ولده الملك الظاهر بحلب كتابًا في حقه بخط القاضي الفاضل، وهو يقول فيه: إن هذا الشهاب السهروردي لا بد من قتله، ولا سبيل أن يطلق، ولا يبقى بوجه من الوجوه، ولما بلغ شهاب الدين السهروردي ذلك، وأيقن أنه يقتل، وليس جهة إلى الإفراج عنه؛ اختار أن يترك في مكان مفرد، ويمنع من الطعام والشراب إلى أن يلقى الله تعالى، ففعل به ذلك، وكان في أواخر سنة ٥٨٦هـ بقلعة حلب، وكان عمره نحو ست وثلاثين سنة.

لما نُفي ابن رشد إلى اليسانة أذاع المنصور — خليفة الأندلس في ذلك الوقت — هذا المنشور التالي بين سكان الأندلس، ينهاهم فيه عن الاشتغال بالفلسفة، وهذا نص المنشور بحروفه:

> قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عوامُّهم بشفوف عليهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعو إلى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم، فخلدوا في العالم صحفًا ما لها من خلاق، مسودة المعاني والأوراق، بُعدها من الشريعة بُعد المشرقين، وتبايُنها تبايُن

الثقلين، يؤمنون أن العقل ميزانها والحق برهانها، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقًا، ويسيرون فيها شواكل وطرقًا، ذلكم بأن الله خلقهم للنار، وبعمل أهل النار يعملون، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة، ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون.

ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطينُ إنس يخادعون الله والذين آمنُوا وما يخدعون إلا أَنفسهم وما يشعرون. يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القوْلِ غُرورًا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهمْ وما يفترون، فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب؛ لأن الكتابي يجتهد في ظلال، ويجد في كلال، وهؤلاء جهدهم التعطيل، وقصاراهم التمويه والتخييل، دبَّت عقاربُهم في الآفاق برهة من الزمان إلى أن أطلعنا الله — سبحانه — منهم على رجال كأن الدهر قد عنا لهم على شدة حروبهم، وعفا عنهم سنين على كثرة ذنوبهم، وما أملى لهم إلا لِيزدادوا إثمًا، وما أُمهلوا إلا ليأخذهم الله الذي لا إله هو وسع كل شيءٍ علمًا.

وما زلنا — وصل الله كرامتكم — نذكرهم على مقدار ظننا فيهم، وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله — سبحانه — ويدنيهم، فلما أراد الله فضيحة عمايتهم، وكشف غوايتهم؛ وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال، ظاهرها موشح بكتاب الله، وباطنها مصرح بالإعراض عن الله، ليس منها الإيمان بالظلم، وجيء منها بالحرب الزبون في صورة السلم، مزلة للأقدام، وهم يدب في باطن الإسلام. أسياف أهل الصليب دونها مفلولة، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة، فإنهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيهم ولسانهم، ويخالفونها بباطنهم وغيهم وبهتانهم.

فلما وقفنا منهم على ما هم قذًى في جفن الدين، ونقطة سوداء في صفحة النور المبين؛ نبذناهم في الله نبذ النواة، وأقصيناهم حيث يُقصى السفهاء من الغواة، وأبغضناهم في الله كما أنا نحب المؤمنين في الله، وقلنا: اللهم إن دينك هو الحق اليقين، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين، وهؤلاء صدفوا عن آياتك، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بيناتك، فباعدْ أسفارهم، وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم، ولم يكن بينهم إلا قليلٌ وبين الإلجام بالسيف في مجال ألسنتهم، والإيقاظ بحده من غفلتهم وسنتهم، ولكنهم وقفوا بموقف الخزي والهون، ثم طردوا عن رحمة الله ولو رُدُّوا لَعادوا لِما نُهُوا عنْهُ وإنهم لكاذبون.

فاحذروا — وفقكم الله — هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية في الأبدان، ومن عثر له على كتاب من كتبهم فجزاؤه النار التي بها يعذب أربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارئه وما به، ومتى عثر منهم على مجد في غلوائه، غم عن سبيل استقامته واهتدائه؛ فليعاجل فيه بالتثقيف والتعريف وَلَا ترْكنُوا إِلى الذِينَ ظلموا فتمسكم النَّار وما لكم من دون الله مِن أَولياء ثم لا تُنْصَرُون. أُولَئِكَ الَّذِينَ حبطت أَعمالهم. أُولئكَ الذين ليسَ لَهمْ فِي الْآخرة إِلَّا النَّار وحبِط ما صَنعُوا فِيها وَباطِل ما كانوا يعملون.

والله تعالى يطهر من دنس الملحدين أصقاعكم، ويكتب في صحائف الأبرار تضافركم على الحق واجتماعكم؛ إنه لمنعم كريم. ا.هـ.

وقضت الأقدار أن ينهزم ابن رشد، وأن تنهزم معه الفلسفة في الأندلس، ولكن لنا أن نتساءل: هل كان ينقرض المسلمون من الأندلس لو أن الناس كانوا أحرارًا في تفكيرهم يتطورون ولا يجمدون؟

قصة القهوة

منذ سنين قليلة قررت حكومة الولايات المتحدة منع الخمور وبيعها وشرائها وتناولها، كذلك منعت الحكومة المصرية بيع الكوكايين، وعاقبت من يحمله لكي يتناوله بنفسه أو لكي يبيعه لغيره، وفي مصر لا يجوز بيع العقاقير الطبية وتحضيرها إلا للصيادلة، ولكن هذا التحريم يحور على محور مدني، أساسه في كل هذه الحالات التي ذكرناها أن هذه الأشياء سامة، فيجب ألَّا تُباع أو تباع فقط برخصة خاصة.

فالنظر مدني، وقاعدته التي يرتكز عليها مصلحة الجماعة المدنية الدنيوية، بحيث إذا ثبت في أي وقت أن هذه المصلحة لا تتعارض وتناوُل هذه المحرمات يسقط تحريمها، ومعنى كلامنا أن هذه الحكومات لا تحرم تناول هذه الأشياء كما يحرم الدين الموسوي على اليهود تناول الخنزير، أو كما يحرم دين الهندوكيين تناول لحم البقر؛ لأن هذين التحريمين الآخرين يرجعان إلى سلطة إلهية، تأمر فتجزم في الأمر ولا تعلل، وعلى المؤمنين طاعتُها بحيث إذا خالفوها تعرضوا للهرطقة أو الزندقة.

ثم في الحالات الأولى يمكن تبديل الشرعة أو إلغاؤها؛ لأنها شريعة مدنية قائمة على إرادة الأمة، وهي أشبه بعقد اجتماعي في موضوع بعينه، أما في حالة لحم الخنزير أو لحم البقر فإن الشريعة لا يمكن مَسُّها بأي تنقيح أو تبديل.

وفيما يلي سنروي محاولات الفقهاء في مكة والمدينة والقاهرة في تحريم القهوة تحريمًا يستند إلى الدين كما حرم لحم الخنزير، وروايتنا منقولةٌ عن كتاب لعبد القادر محمد الأنصاري من أهل القرن العاشر للهجرة، وسنترك المؤلِّف يروي القصة بلسانه، وكل مهمتنا اختصارُ الكتاب في جملة صفحات، فإننا سنحذف ولكننا لن ننقح، قال المؤلف:

اعلم أن القهوة هي الشراب المتخذ من قشر البن أو منه مع حبه المجحم؛ أي المقلي، فمن قائل بحِلها، يرى أنها الشراب الطهور المبارك على أربابها، الموجبة للنشاط والإعانة على ذكر الله تعالى، وفعل العبادة لطلابها، ومِن قائل بحرمتها، مفرط في ذمها والتشنيع على شرابها.

وكثر فيها من الجانبين التصانيف والفتاوى، وبالغ القائل بحرمتها، فادعى أنها من الخمر، وقاسها به وساوى، وبعضهم نسب إليها الإضرار بالعقل والبدن، إلى غير ذلك من الدعاوى والتعصبات المؤدية إلى الجدال والفتن، وحصول ما أدى إلى منازعات ومحن بمكة والقاهرة، والمنع من بيعها، وكسر أوانيها الطاهرة، بل إلى تعزير باعتها بالضرب وغيره من غير حجة ظاهرة، وإلى تأديبهم بضياع مالهم، وإحراق القشرة المتخذة منه في كرات متواترة، وبالغ الذامُّ لها أن شاربها يُحشر يوم القيامة ووجهُهُ أسود من قعور أوانيها، وكثر التقاطع والتدابر بين الفريقين والذم لمن يعانيها.

وأما مبدؤها فقال الشيخ شهاب الدين بن عبد الغفار ما لفظه: إن الأخبار قد وردت علينا بمصر أوائل هذا القرن — القرن العاشر للهجرة — بأنه قد شاع في اليمن شرابٌ يقال له: القهوة، تستعمله المشايخ الصوفية وغيرهم للاستعانة به على السهر في الأفكار التي يعلمونها على طريقتهم المشهورة، ثم بلغنا بعد ذلك بمدةٍ أن ظهورها وانتشارها فيه كان على يد أبي عبد الله المعروف بالذبحاني، وسمعنا أنه كان متولِّيًا بوظيفة تصحيح الفتاوى في عدن، وهي وظيفةٌ كانت بها إذ ذاك تعرض على صاحبها الفتاوى، فيقر ما يراه صوابًا ويكتب تحتها «صحيح» بخطه وينبه على ما يرى إصلاحَه.

وسبب إظهاره لها ما سمعناه أيضًا أنه كان عرض له أمرٌ اقتضى الخروجَ من عدن إلى بر العجم، فأقام به مدة، فوجد أهله يستعملون القهوة ولا يعلم لها خاصية، ثم عرض له حين رجع إلى عدن مرضٌ فتذكرها، فشربها، فنفعتْه فيه، فوجد فيها من الخواص أنها تُذهب النعاس والكسل، وتورث البدن خفة ونشاطًا، فلما سلك طريق التصوف صار هو وغيره من الصوفية بعدن يستعينون بشربها على ما ذكرناه، ثم تتابع الناسُ بعدن والفقهاء والعوام على شربها؛ للاستعانة بها على مطالعة العلم وغيره من الحرف والصناعات ولم تزل في انتشار.

وأما أول ظهورها بمصر فقال ابن عبد الغفار: إنها ظهرت في حارة الجامع الأزهر في العشر الأول من هذا القرن — العاشر — وكانت تشرب في نفس الجامع برواق اليمن، يشربها فيه اليمانيون ومَنْ يسكن في رواقهم من أهل الحرمين، وكان المستعمل لها

الفقراء المشتغلون في الرواتب من الأذكار والمديح على طريقتهم، وكانوا يشربونها كل ليلة اثنين وجمعة، يضعونها في ماجور كبير من الفخار الأحمر، ويأخذ منها النقيب بسكرجة صغيرة، ويسقيهم، الأيمن فالأيمن، مع ذكرهم المعتاد عليه غالبًا وهو: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، وكان يشربها معهم — موافقة لهم — مَن يحضر الرواتب من العوامِّ وغيرهم.

قال: وكنا ممن يحضر معهم وشربناها، فوجدناها تُذهب الكسل والنعاس — كما قالوا — بحيث إنها كانت تسهرنا معهم ليالي لا نحصيها، إلى أن نصل الصبح مع الجماعة من غير تكلُّف، وكان يشربها معهم من أهل الجامع وغيرهم خلقٌ لا يُحصى، ولم يزل الحال على ذلك. وشربت كثيرًا في حارة الجامع الأزهر، وبِيعت بها جهرًا في عدة مواضع، ولم يعترض أحدٌ ولا أنكر شربها مع اشتهارها بمكة وشربها في نفس المسجد الحرام وغيره، بحيث لا يعمل ذكر أو مولد إلا بحضورها.

ثم حدث الإنكار عليها بمكة الشريفة في سنة سبع عشرة وتسعمائة، وكان القائم في ذلك رجلين أعجمين أخوين، كانا مشهورين بالحكمة، وكان لهما فضيلة في المنطق والكلام والطب، ويدعيان مرتبة في الفقه، وهما الرجلان اللذان رحلا إلى مصر في أواخر دولة الغوري، وأقاما بها حتى قدم إليها السلطان المظفر سليم شاه، فقتلهما لما كانا يُرمَيان به مما الله أعلم بحقيقته.

وأعانهما على القيام في أمرهما شمس الدين الخطيب، نقيب قاضي القضاة سري الدين بن الشحنة وأناس آخرون، فأغرى شمس الدين الخطيب الأمير خاير بك معمر — باش مكة ومحتسبها إذ ذاك — على إبطالها من الأسواق، ومنع الناس من شربها، وقرروا أنها موصوفة بتلك الصفات القبيحة، ورغبة في ذلك جدوا لحمله على أن يعقد مجلسًا عنده، وانفصلوا منه على القول بحُرمتها، وكتبوا بذلك محضرًا أنشأه لهم شمس الدين الخطيب، وأرسلوه إلى مصر، وأرسلوا معه سؤالًا من إنشاء الحكيمين والخطيب، وطلبوا مرسومًا سلطانيًّا لمنعها بمكة.

ولما انصرفوا من عقد المجلس شهر الأمير خاير بك النداء بمنع شربها، وشدَّد في ذلك، حتى إنه عزَّر جماعة من باعتها، وكبس مواضعهم، وأخرج ما وجده فيها من قشر البن، وأحرقه في وسط المبيع، فبطلت حينئذ من السوق وكان الناس يشربونها في بيوتهم؛ اتقاء شره لأنه بلغه عن شخص أنه شربها فعزَّره، وطاف به في الأسواق.

ثم بعد ذلك ورد المرسوم السلطاني، ولكن لا على وفق غرضهم، فتجاسر الناس على شربها، ولا سيما وقد بلغهم أنها لا تُمنع في مصر التي هي بلدة السلطان، ولم ينكرها أحدٌ من علمائها، وفتر خاير بك عن التسلط على الناس بسببها، واستمر الحال على ذلك، وقال بعض أهل المجون:

قهوة البن حرمت فاحتسوا قهوة الزبيب
ثم طيبوا وعربدوا وانزلوا في قفا الخطيب

وفي سنة تسع وثلاثين وتسعمائة (٩٣٩هـ) رُفع للشيخ العلامة واعظ العصر شهاب الدين أحمد السنباطي سؤالٌ هذه صورته: ما قولكم — رضي الله عنكم — في شراب يُسمُّونه القهوةَ، يجتمع عليه الجماعة ليشربوه، ويزعمون أنه مباحٌ مع أنه يترتب عليه مفاسدُ كثيرة، فهل ذلك جائزٌ أم حرام؟ فأجاب بحرمتها وأنها مُسْكرة.

وفي سنة ٩٤١ تعرضوا للشيخ في مجلس وعظه بذكر القهوة، فأفتى بحرمتها، وصمم على ذلك في مجالسه بالجامع الأزهر، فتعصب جماعة من القوم لَمَّا سمعوا منه ذلك، وخرجوا إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم بغير أمر حاكم، بل لمجرد الحفلات العامية، وكسروا أوانيها، وضربوا جماعة ممن كانوا هناك، فقام بسبب ذلك فتنةٌ وتعصُّب ممن يقول بالحل والحرمة، واحتاج الأمراء إلى الاستفتاء أيضًا، واتصل «الخبر» بقاضي مصر الشيخ محمد بن إلياس الحنفي، فسأل عن حكمها جماعة من علماء القاهرة المفتين بها، واعتمد على إفتاء من قال بحلها من العلماء المعتَبَرين، ثم استظهر بعد ذلك فأمر بطبخها في منزله، وسقى منها جماعاتٍ بحضرته، وجلس يتحدث معهم؛ ليختبر حالهم، فلم يَرَ فيهم تغييرًا ولا شيئًا منكرًا، فأقرها على حالها.

وفي سنة (٩٤٥) بينما جماعةٌ في بيوت القهوة يستعملونها في شهر رمضان بعد العشاء وافاهم صاحب العسس، إما من تلقاء نفسه وإما بأمر أُوحي إليه، وأخرجهم منها بهيئة شنيعة، بعضهم بالحديد وبعضهم مربوطٌ بالحبال، فباتوا في منزل السوبا شاه، ثم أُطلقوا صباحًا بعد أن ضرب كل واحد منهم سبع عشرة ضربة، ثم لم يلبثوا أن ظهر الحق، وعاد الحال إلى ما كان عليه أولًا بعد يومين أو نحوهما.

وورد في سنة (٩٥٠) في موسم الحاج صحبة الركب الشامي إلى مكة حكمٌ سلطانيٌّ بمنع القهوة وإبطالها، وإلزام باعتها بمنع التسبب فيها وإبطالها محالها ... ثم تعددت بيوتها على غير مبالاة من الولاة، وشُربت في تلك السنة جهارًا، وكذلك مُنعت بالقاهرة

مرارًا فلم تَطُل المدة، وعلا منارها، ولم يزل أمرها ظاهرًا، وتعداد بيوتها وافيًا مشتهرًا، ويشربها العلماء والصلحاء وأماثل الفقهاء، ويقر عليها أهل الإفتاء والتدريس، ويواظب على شربها من وصف بالفضل … والذي أقوله: إن الحق الذي لا مراء فيه ولا شبهة تعارضه وتُنافيه أنها في حد ذاتها حلال، وبها نشاط على العبادة، ولا يشوبه نقص أو اختلال.

وحسب القارئ هذه المختارات من الكتاب، وكلُّها تدل على أن معظم الفقهاء والحكام حاولوا — إلى منتصف القرن العاشر الهجري — تحريمها في مصر والحجاز، مستندين في ذلك إلى الدين، ولكن بيوت القهوة «تعددت على غير مبالاة من الولاة» وأبى الجمهورُ أن يتقيد بفتاوَى الفقهاء أو تنطُّع الحكام، واحتفظ بحريته في تناول الطعام والشراب. وحرية الأكل من الحريات التي قد نستهين بها، ولكن إذا اعتبرنا المبدأ نجدها أنها ليست دون الحريات الأخرى قدرًا؛ لأنها تستند — في الواقع — إلى حرية الفكر.

الجمهور والاضطهاد

موضوع هذا الكتاب هو اضطهاد الحكومات للناس، ولكن قد يكون الجمهور هو الباعث للحكومة على الاضطهاد كما رأينا في الأندلس، وقد يعمد الجمهور أيضًا إلى أن يأخذ الأمر بيده مباشرة، ويضطهد الخارجين على عاداته في الدين أو غير الدين، في حين تكون الحكومات متسامحة، راضية بوجود هؤلاء الخارجين.

فالبيض في الولايات المتحدة يضطهدون السود، ويقتلونهم، ولا تقوى حكومات الولايات على حماية السود منهم، وكان الرومانيون يضطهدون اليهود كلما سنحت فرصة لانتهاب أموالهم، وكان الأتراك — إلى وقت قريب — يختصرون عدد الأرمن بالسيف، ويمنعونهم من التزايُد المفرط، كذلك سمعنا عن مشاجرات كانت تقع بين الهندوكيين والمسلمين في الهند، وكثيرًا ما كانت تنتهي بقتل عدد كبير من الطرفين.

وهذا الاضطهاد لا تُمكن معالجته بالقوانين، فإنه قائمٌ على درجة الثقافة الفاشية في الأمة، ومقدار ما فيها من اعتراض وعصبيات قديمة؛ لأن القوانين تعجز عن تأديب الجمهور إذا لم يكن من ورائها رأي عام يدعمها ويؤيدها، فإذا كان هذا الرأي العام يروج التعصب، ويدعو إلى الاضطهاد؛ فإن الحكومة بكل ما فيها من نيات حسنة لا تستطيع الإصلاح إلا بنشر الثقافة، وقشع غيوم الخرافات من رءُوس الجمهور، وهذه طريقة بطيئة، ليست فيها سرعة الأمر والنهي التي تتسم بها القوانين.

وماذا يمكنك — مثلًا — أن تقول في قصة الطبيب المسلم الذي يرفض أن يعالج غير المسلمين؟ ليس في مستطاعك أن تتهم الإسلام بتعصبه؛ لأن هذا التعصب قد يرجع إلى مزاجه الشخصي؛ إذ لم يقل الإسلام قط: إن العلم حرام على غير المسلمين، فقد ذكر «طبقات الأطباء» عن رضا الدين الرجبي — الطبيب أيام الملك العادل — أنه «لم يقرئ

في سائر عمره عن أهل الذمة سوى اثنين لا غير … بعد أن أثقلا عليه بكل طريق، وتشفعا عنده بجهات لا يمكن ردها.»

وكذلك لا يمكننا أن نخوض في موضوع كراهة الأمم المختلفة لليهود؛ لأن هذه الكراهة قائمةٌ على عصبيات وأغراض قديمة، تحتاج إلى تربية طويلة لقَشْعها عن العقول.

ولكن يجب أن نذكر أن الحكومات مؤلفة من الجماهير، وقد تكون من صفوة الجماهير، ولكنها تبقى مع ذلك متأثرة بروحها، تحسب لها وتقدر عواقب غضبها، وتتملقها باضطهاد من ترغب في اضطهاده، وقد اضطهد «دريفوس» حديثًا في فرنسا بفرط ضغط الجمهور — الذي يكره اليهود — للحكومة، وكانت حكومات الأندلس تضطهد اليهود، وتضطهد العلماء؛ تملقًا للجمهور.

وبهذه المناسبة يحسن بنا أن نذكر المذبحة التي أصابت نحو أربعة آلاف يهودي في إسبانيا سنة ٣٥٩هـ على يدي جمهور جاهل، استفزتْه العاطفة الدينية؛ فقد كان باديس أمير غرناطة قد استوزر يهوديًّا يُدعى ابن نغزالة، فألَّف أبو إسحاق الفقيه قصيدة حضَّ فيها قبيلة صنهاجة على اليهود وأغراهم بقتلهم، قال نفح الطيب: «وهي قصيدة طويلة» فثارت صنهاجة على اليهود، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور «ابن نغزالة» فأراح الله البلاد والعباد ببركة هذا الشيخ «أبو إسحق الفقيه» الذي نور الحق على كلامه بادٍ.

ويقول أبو إسحاق الفقيه هذا — في قصيدته المشئومة:

ألا قل لصنهاجة أجمعين   بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي ثقة مشفق   يعد النصيحة زلفى ودين
لقد ذل سيدكم ذلة   تقر بها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرًا   ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به وانتخوا   وتاهوا، وكانوا من الأرذلين

ويقول في الإغراء بقتل الوزير وطائفة اليهود:

فبادر إلى ذبحه قربة   وضَحِّ به فهْو كبش سمين

ولا ترفع الضغط عن رهطه فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرِّقْ عُراهم وخذ مالهم فأنت أحق بما يجمعون

فهذا مثال من تعصُّب الجماهير، وسفالة أديب، انتهت بمأساة فظيعة.

وقد كان جمهور الأندلس أغبى جمهور في العالم الإسلامي كله، قد ركبه الفقهاء واستغلوه لمصالحهم، مع أن حكام الأندلس وأمراءه كانوا على غاية بعيدة من التسامح، وذلك في حين أن الجماهير المسلمة في الشرق كانت مسالمة موادعة، وحياة المعري وحدها تكفي برهانًا على ذلك، فإن هذا الأديب العظيم عاش إلى الشيخوخة الهنية في بلدته «المعرة» ولم يُلاقِ من الجمهور أو الحكومات المسيطرة عنتًا مع ما كان يمكن أن يؤاخذ عليه، ويكون كافيًا للحكم عليه بالقتل؛ فقد شك في الدين، وأعلن شكوكه في أبيات عديدة تُنوقلت عنه، وشاع عنه الكفر والإلحاد، ومع ذلك لم ينله أذًى.

ويحسن بنا هنا أن ننقل شيئًا من أقواله؛ لكي يعارضها القارئ بمقتلة اليهود في إسبانيا، فالدين الذي كان يخضع لسلطانه ذلك الأديب أبو إسحق الفقيه هو نفسه الدين الذي كان يخضع لسلطانه أبو العلاء المعري، وإنما اختلفت الثمرة لاختلاف التربة.

فمما يُروى عن المعري ويؤاخذ عليه قوله:

قلتم لسنا صانع قديم قلنا صدقتم كذا نقول
ثم زعمتم بلا زمان ولا مكان ألا فقولوا
هذا كلام له خبيء معناه ليست لنا عقول

وقال عنه ياقوت: «كان متَّهمًا في دينه، يرى رأي البراهمة، لا يرى إفساد الصورة، ولا يأكل لحمًا، ولا يؤمن بالرسل ولا بالبعث والنشور.»

ومما يؤاخَذ عليه المعري: قوله يخاطب الله:

أَنَهيتَ عن قتل النفوس تعمُّدًا وبَعثتَ تأخذها مع الملكين
وزعمت أن لها معادًا ثانيًا ما كان أغناها عن الحالَين

وأيضًا قوله:

إذا ما ذكرنا آدمًا وفعاله وتزويجه لابْنَيهِ بنتيه في الخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الخلق من عنصر الزنا

وأيضًا قوله:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ومجوس حارتْ واليهود مُضللهْ
اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دَيِّنٌ لا عقل لهْ

فكل هذه أقوالٌ صريحةٌ في الكفر، لم يتحرك لها الجمهور أو السلطان إلا حركةً ضعيفة جدًّا، نرى بعضها في بيتين من قصيدة القاضي أبي جعفر الزوزني يقول فيها:

كلب عوى بمعرة النعمان لما خلا عن ربقة الإيمان
أمعرة النعمان ما أنجبت إذ أخرجت منك معرة العميان

وقد مات المعري سنة ٤٤٩هـ.

فجمهور الشرق كان قد تربى ونشأ على التسامح، وكان فقهاؤه قد تثقفوا بعض الشيء بثقافة الفلاسفة والأدباء، فلم يجدوا حرجًا في أقوال المعري يستوجب العقوبة الصارمة، في حين أن جمهور الأندلس كان مطية الفقهاء، يوجهونه إلى أَيَّة ناحية يُريدونها. والشرق والغرب كانا يؤمنان في ذلك الوقت بدين واحد هو الإسلام.

ويجب ألا ننسى أيضًا أن السهروردي قُتل بأمر صلاح الدين بعد وفاة المعري بنحو ١٤٠ سنة، ولعله لم يقل نصف ما قاله المعري من التنديد بالأديان والحمل عليها، ولكن صلاح الدين كان رجلًا كرديًّا غير مثقف، فاستطاع الفقهاء أن يؤثروا فيه.

وخلاصة هذا الفصل:

(١) أن تهور الجماهير وتعصبها لا يمكن أن يعزى إلى الدين؛ لأن الدين يحتاج إلى ثقافة لا تصل إليها الجماهير، وهذه الجماهير تتأثر باعتبارات عديدة الدين واحد منها فقط، فالفرنسيون مثلًا يكرهون اليهود الآن لاعتبارات وطنية تجارية.

(٢) أن التعصب يرجع إلى القابض على السلطة الدينية، وفهمه للدين يختلف باختلاف ما هو حاصل عليه من الثقافة، فالدين المسيحي — الذي تؤمن به أوروبا الآن والذي

يقول المؤمنون به بالتسامح — هو نفسه الذي كان يقول المؤمنون به بعدالة أحكام محكمة التفتيش في القرون الوسطى، والإسلام الذي تسامح في وجود المعري هو نفسه الذي توسل به الفقهاء لقتل السهروردي.

الجزء الثاني

حرية الفكر في العصور الحديثة

إرهاصات النهضة الأوروبية

الإرهاص لفظةٌ شرعية، معناها تلك الخوارق أو الكرامات التي يأتيها النبيُّ قبل أن تبلغ نبوته سن الرشد؛ أي قبل أن يستتم حقوق الدعوة إلى دينه الجديد، ولكل حركة اجتماعية في العالم إرهاصاتٌ تتقدمها، وتدل عليها، وتكاد تنطق بها، فللثورةِ الفرنسية الكبرى إرهاصات واضحة في صيحات فولتر وديدرو وروسو، ونحن الآن نعيش على أبواب انقلاب اجتماعي خطير، نرى إرهاصاته في التقدم الآلي للصناعات، وفي الدعاية الاشتراكية التي هي نتيجةُ هذا التقدم، وأيضًا في تقدُّم البيولوجية التي ستتحكم في المستقبل القريب في نظام الزواج والعائلة.

والآن يجب أن نُلقي نظرة على القرون الوسطى في أوروبا؛ لنتبين فيها إرهاصات النهضة الكبرى، التي يتواضع المؤرخون على أنها بدأت في ختام القرون الوسطى سنة ١٤٥٣هـ عند سقوط القسطنطينية في يد الأتراك.

ولقد سميت القرون الوسطى — بحق — القرونَ المظلمة؛ فهي تمثل العصور التي ساد فيها الجهل والتعصب أوروبا، والتي زالت فيها ثقافة الإغريق، وصار العلم — أو مَسْخ العلم — مقصورًا على الرهبان في الأديرة، وكانت معارف هؤلاء مقصورةً على الآداب اللاتينية، وعلى شيء قليل من نظريات إقليدس، وعلى ما تُرجم من العربية إلى اللاتينية عن أرسطوطاليس وأفلاطون — وأولهما طبيعي، وثانيهما إلهي.

وكان أساتذة تلك العصور يجهدون أنفسهم في رياضة الفلسفة على أن تكون مطيةً للدين، وقد ريضت فلسفة ابن رشد وفلسفة تلميذه ابن ميمون لهذه الغاية، وكان علم الرهبان قائمًا على النقل والجدل والألفاظ، بعيدًا عن الابتكار، يُعنى أكبر عناية بدرس آباء الكنيسة، ويهمل الإهمال كله أية نزعة نحو الاستقلال في الفكر.

والنزعة هي كل شيء في ثقافة الأمم؛ فهي التي تقرر وجهتها، وتعمل لرقيها أو انحطاطها، وتقديم العلم أو تأخيره، فإذا كانت النزعة في الأمة هي النقل والجدل اللفظي فإنها لا تكتشف شيئًا في عالم الفكر، وإذا صادفها اكتشاف لم تقصد إليه لم تنتفع به.

ففي القرن الثالث للميلاد مثلًا عرفت البوصلة وعرفت العدسة، ومع ذلك بقي هذان الاكتشافان عدة قرون يسمع بهما الناس، ولا يحاول أحد أن يضع عنهما «نظرية»، وعرفت أشياء مهمة مدة القرون الوسطى عن التشريح والفلك والنبات، ولكن لم يحاول أحدٌ أن يجمع هذه الاكتشافات في نظريات.

والنظرية في العلم أداة اقتصادية لا يُستهان بها، تجمع المعارف المشتتة في قاعدة واحدة، وتفتح الباب لإيجاد قاعدة أُخرى فتتقدم بذلك العلوم، ولكن نزعة القرون الوسطى كانت — كما قلنا — قائمة على النقل والمعارف، تجمع وتحفظ لخدمة الدين.

وكان العرب في إسبانيا قد اشتغلوا بالكيمياء، واعتمدوا على التجربة في خَلْط العناصر والمركبات، فاهتدوا إلى معرفة جملة أشياء كيماوية، وكانت شهوةُ المال هي الغاية من هذه التجارب التي كانت ترمي إلى إحالة المعادن الخسيسة إلى ذهب، وانتقلتْ عدوى هذه الشهوة من إسبانيا إلى أُوروبا، فأخذ العلماء والمشعوذون يشتغلون بالتجارب العلمية، فكانت هذه نزعة جديدة اكتسبتْها أوروبا من عرب الأندلس.

ونحن نرى أثر هذه النزعة في «روجور بيكون» الذي مات سنة ١٢٩٢، وهو أول عالم من القرون الوسطى نُحسُّ فيه بالروح العلمية؛ فقد قال عن العلوم التجريبية: «إن جميع العلوم — ما عدا هذا العلم — إما أنها تَستعمل الجدل لاستنتاج النتائج مثل العلوم النظرية، وإما أنها هي نفسُها استنتاجاتٌ عامةٌ ناقصةٌ، والعلم التجريبي وحده يحقق إلى درجة الكمال صحة ما يمكن الطبيعة أو الفنون أو الخداع عمله، فهو وحده يعلمنا كيف نقف على غباوات السحرة، كما يعلمنا المنطق كيف نميز بين الصحيح والخطأ من الجدل.»

أليس هذا إرهاصًا بالنهضة العلمية؟ ولم يقنع بيكون بالكلام؛ فإنه انكبَّ على بواتقه يُحلِّل ويخطط الأجسام، ويُقال: إنه صنع نوعًا من البارود استخرجه من الفحم، وتنبأ باختراع البواخر والميكروسكوبات، وكان يحض الطلبة في أكسفورد على تعلُّم العربية والإغريقية والعلوم الطبيعية، مما استحق لأجله أن يُتَّهَمَ بمزاولة السحر، وأن يُحبس عليه ١٤ سنة بحكم البابا والكهنة، هذا في العلم.

ولكن النهضة الدينية كان لها إرهاصات أيضًا في شخص «ويكلف» الذي مات سنة ١٣٨٤؛ فإنه ترجم التوراة إلى الإنكليزية، وتجرأ على أن يضع مبدأ خطرًا، خلاصته: أن كلمة الإنجيل هي أساسُ المسيحية، ولا عبرة بما يقوله الكهنة مما يخالفها.

وبيكون وويكلف كلاهما إنجليزيٌّ، ولكن الشرارة التي قدحاها استطارتْ إلى أُوروبا، ففي سنة ١٤٠٠ نجد كاهنًا بوهيميًّا في براغ ينشر على الناس مذهب ويكلف، هذا الكاهن هو «جون هس» الذي قُتل سنة ١٤١٥، وعلم البابا بنشاطه في الدعوة إلى مذهب ويكلف فأمر في سنة ١٤١٠ بإحراق كتب هذا الراهب الإنجليزي، وحكم على هس بالحرم.

وحدث في سنة ١٤١٥ أنه رحل إلى كونستانس — في ألمانيا — ليشترك في مناقشات المجمع الكنسي، فلما بلغ المدينة قبض عليه الكهنة، وحاكموه وقضوا عليه بالقتل لهرطقته، فقُتل دون أن يستغفر أو يبديَ أقل ضعف، وأُحرقت كتبُه أمامه قبل قتله.

ومما هو ذو مغزًى أن ثورة ويكلف وثورة هس لم تقتصرا على الإصلاح الدينيِّ فقط؛ فإن الأول أحدث ثورتين بين الفلاحين في إنجلترا، والثاني أحدث حركة وطنية في بوهيميا؛ لأن العين إذا انفتحت للفساد في إحدى نواحي النظام الاجتماعي امتد بصرُها لسائر النواحي، والنفس إذا نزعت نزعة النقد للدين لم يرضها التسليم بسائر الفضائح في الحكومات أو التفاوت الاقتصادي أو غير ذلك.

ولذلك نجد أن النهضة الأوروبية لم تكن نهضة دينية فقط، بل كانت نهضة أدبية وعلمية أيضًا، وإنما كان أساس هذه النهضات الرغبة في إصلاح الدين، وكف رجاله عن أذى الناس، ومتى تجرأ الإنسان على أن يقف في وجه آلهته لم يُبالِ بعد ذلك بالقيود، بل سرعان ما يحطمها، وينطلق حرًّا قد خلع عنه مأثور السلف، وأخذ ينظر بعين النقد لكل شيء.

النهضة الأوروبية

شملت النهضة الأوروبية جملة مناحي النشاط الفكري، فقد كان لسان حال الناهضين في الدين يقول: «انشدوا الحق في الكتاب المقدس، ولا تبالوا بالكهنة والكنيسة.»

ولسان حال الناهضين في الأدب يقول: «انشدوا الحقيقة في كتب القدماء، وخاصة الإغريق، ولا تبالوا بالكتاب المقدس.»

ولسان حال الناهضين في العلم يقول: «دعنا مما حفظناه عن أرسطوطاليس وجالينوس، واعمد إلى بوتقتك، وجرب وخذ مشرطك وشرِّح.»

وبعبارة أخرى نقول: إن النهضة بأنواعها قد استقت روح التجديد من ثلاثة مصادر:

(١) الأدب وفنونه من الإغريق القدماء، وقد ابتدأت دراسة لغة الإغريق بعد أن مات في أوروبا نحو ألف سنة في إيطاليا، ثم انتشرت عندما استولى الأتراك على القسطنطينية، فهجرها الرهبان وكانوا يدرسون هذه اللغة.

(٢) العلوم التجريبية من عرب الأندلس.

(٣) دراسة الكتاب المقدس من العبرانية والإغريقية.

ولكن كان هناك للنهضة دافعٌ آخرُ يدفعها إلى العمل، نعني به: سد طريق التجارة بين أوروبا وآسيا وباستيلاء الأتراك على سوريا ومصر؛ فإن مصر وسوريا عَمَّهما الخراب لسد هذه الطريق، وعدم انتفاعهما بمرور التجارة بين القارتين، ولكن أوروبا انتفعت بغباوة الأتراك، فعمدت إلى اكتشافاتها الجغرافية العظيمة، ويُمكن أن يقال: إن هذه الاكتشافات كانت نتيجة النهضة، وهذا صحيح، ولكنها كانت أيضًا دافعًا آخر يجرئ الناهضين في العلم والأدب والفلسفة والدين على التفكير الحر الجريء.

فإن الراهب العالم، الذي كان يدرس كتب القديس أوغسطين، وينظر إليها نظرة الاحترام، التي ينظر بها إلى الكتب المقدسة — تزعزع إيمانُه به وبغيره من القدماء عندما رأى أنه كان يجزم بأن القول بوجود أناس في الجهة الأخرى من الكرة الأرضية هرطقة؛ لأن هذه الجهة لم ير سكانها المسيح الذي جاء لجميع البشر، ألم ير هو أن كولمبوس قد اكتشف أميركا سنة ١٤٩٢، وأن فاسكو دي غاما قد بلغ جزائر الهند سنة ١٤٩٩؟

ولم يكن الشك في آباء الكنيسة فقط، بل تعدى إلى أرسطوطاليس نفسه، فقد كانت كلمة أرسطوطاليس هي العليا، تتحطم الرءُوس في تفسيرها، ولا تستطيع معارضتها طول مدة القرون الوسطى، وحسبك دليلًا على مكانة هذا الفيلسوف أن الرشديين والميمونيين كان لكل منهم فلسفةٌ تعارض إحداهما الأخرى، وكانت كلتاهما — مع ذلك — قائمة على أساس فلسفة أرسطوطاليس، كأن أقوال هذا الإغريقي العظيم أصبحتْ ناموسًا طبيعيًّا، يتفهمه الناسُ ولا يستطيعون إنكارَه، وإن كانوا يختلفون في تفسيره.

فقد كان يقول بأن الأرض مركزُ الكون، وعاشتْ هذه العقيدة نحو ألفي سنة حتى كانت النهضة الأوروبية، فإننا نجد «نقولا كاسا» الذي مات سنة ١٤٦٤ يُعلن عن شكه فيها في هوادة وضعف بقوله: «لقد فكرت كثيرًا، وظني أن الأرض غيرُ ثابتة، وإنها لتتحرك كما تتحرك الكواكب … وأظن أنها تدور حول محورها مرة كل يوم.»

ولم يضطهد كاسا لهذه الظنون الخطيرة؛ لأن رجال الدين لم يفطنوا لمرماها البعيد.

المطبعة

اعتدنا رؤية الكتب والصحف، نقتنيها ونقرأها، بل نطرحها لكثرتها ولقلة أثمانها، حتى لَيكاد يتعذر علينا أن نتصور زمنًا كان يعيش فيه الناس بلا كتب أو صحف مطبوعة.

ومع ذلك فإن هذا كان الواقع إلى القرن الخامس عشر، ولم يكن فن الطبع نفسه مجهولًا، فإن الشرقيين والغربيين كانوا يعرفون الأختام منذ زمان بعيد، ويطبعونها على المراسيم والمنشورات، وكانت أوراق الكوتشينة معروفة، تُباع للناس مطبوعة قبل أن تُخترع طباعة الكتب بأكثر من قرن، ومع ذلك لم يفكر أحدٌ في طباعة الكتب إلا في قرن النهضة، القرن الخامس عشر.

وإنما كان ذلك؛ لأن نزعة النهضة لم تكن بعد قد أُشربت بها النفوسُ، والإنسان يعمى عن أبسط الأشياء ما لم تتملك نفسه نزعة خاصة، تجعله ينقب ويبحث ويتساءل ويشك ويجرِّب، وكان الناس في أُوروبا مدة القرون الوسطى لا يعرفون من العلم سوى ما قاله السلفُ الصالح، يقضون أوقاتهم في تفسير أقوالهم على نحو ما يفعل بعض الشرقيين الذين هم نكبة الشرق الآن.

وتنسب الطباعة الحديثة إلى جوتمبرج الألماني، الذي مات سنة ١٤٦٨، فهو الذي صنع الحروف المنفصلة، وطبع بها عدة كتب، لا يزال يوجد منها للآن في متحف مينز توراة مطبوعة باللاتينية، ومعجم لاتيني، وجزء من تقويم، وهذه أشياءُ ضئيلة القيمة في ذاتها، ولكن جوتمبرج أشعل شرارةً لو كان علم الرجعيون بمبلغ النار التي ستُؤججها فيما بعد لوأدوا المطبعة في مهدها.

فإنه ما جاء القرن السادس عشر حتى انتشرت المطابع، وصارت الكتب تخرج منها بالآلاف واضحة الخط، رخيصة الثمن، فأقبل عليها الجمهور، يستنير بهذه

المعارف التي كانت قبلًا وقفًا على الأغنياء، ورأى الكهنةُ أنهم أمام تيار قويٍّ من الثقافة، يكاد يطفو بهم ويغرقهم، فألَّفوا المجامع لحرمان الناس من قراءة الكتب التي لا توافق الكنيسة على نشرها، وكانوا ينشرون أسماء هذه الكتب فيما يسمى «القائمة» أو «الدليل».

ولكن «القائمة» بدلًا من أن ترُد الناس عن قراءة هذه الكتب كانت تحثهم على اقتنائها، وكان الطبَّاعون في ألمانيا وهولندا يبعثون وكلاءهم؛ لكي يبحثوا عن الكتب الواردة بقائمة الحرم، فينسخونها ويحملونها إلى مطابعهم في شمال أوروبا ويطبعونها. وكانت «قائمة» الكنيسة أكبر إعلان للكتاب، وصار للمطابع الشهيرة في أوروبا وكلاء يقيمون في رومية، وينسخون الكتب الواردة بالقائمة، وينفذونها إلى مطابعهم، مغتبطين بتحريم الكنيسة لها؛ لأن هذا التحريم كان أكبر ضمان لرواجها.

ويطول بنا الكلام إذا أردنا أن نتتبع الاضطهادات التي نالت المؤلفين والطباعين من الكنيسة والحكومات، بل آلة الطباعة نفسها، وهي قطع مؤلفة من جماد لا يحس، نالت شيئًا من الاضطهاد؛ لأنه كان يحكم بإغلاقها كأنها جسم حي ينشر الفساد بين الناس ويعاقب بتعطيله.

ولكن «قائمة» الكنيسة، وإحراق الكتب، واضطهاد المؤلفين، وحبس الطبَّاعين، وتعطيل المطابع؛ كل هذه لم تستطع أن تمنع الثقافة من الانتشار؛ لأن فكر الإنسان وشهوته للتطور يأبيان إلا أن يشقا لها طريقًا وسط الاضطهاد نحو الحرية والسمو.

وخير ما يقال عن الطباعة ما قاله ملتون الشاعر الإنجليزي سنة ١٦٤٤، فقد تكلم ملتون عن مراقبة الطباعة، وقال: «إنها تؤدي إلى تثبيت الثقافة ووقف المعارف، وذلك ليس فقط بتعجيز كفاياتنا وثلمها في فحص ما نعرفه، بل أيضًا بإعاقة الاكتشافات الجديدة التي كان يمكن أن تكتشف سواء في الحكمة الدينية أو الحكمة المدنية»، وإذا كان تيار الحقيقة «لا يتدفق ماؤه ويسير قدمًا فإنه يأسن، ويستحيل بركة كدرة، قوامها التجانس والتقاليد.»

ثم يضرب المثل بالأقطار التي بها رقابةٌ على المطبوعات، ويقول: «انظر إلى إيطاليا وإسبانيا، هل هما أحسن حالًا بمثقال ذرة، أو هل هما أشرف أو أحكم أو أطهر بما اكتسبته كل منهما من قسوة محكمة التفتيش في معاملتها للكتب؟!» وأيضًا: «أعطني الحرية في أن أعرف وأن أقول وأن أناقش كما يملي عليَّ ضميري قبل أن تعطيني أية حرية أخرى.»

البروتستانتية

نجحت البروتستانتية؛ لأنها جاءت في وقت كان قد آن فيه أن تنجح، فقد خرج قبلها كثيرون على رومية، طوائف وأفرادًا، ولكنهم لم ينجحوا؛ لأن الزمن لم يكن قد نضج بعد للنجاح.

نجحت البروتستانتية لشيئين:

(١) لأن البابوية كانت قد طمت وطغت، بحيث كان الكهنة يبيعون للناس غفراناتهم عن خطاياهم، وأيضًا كان الناس قد سئموا المظالم التي ارتكبتها محاكم التفتيش.

(٢) ظهورُ مبدأ القوميات سببٌ آخرُ للنهضة البروتستانتية؛ فإن الملوك والأمراء الذين كانوا يحكمون أوروبا في شمال الألب كانوا يغارون من سلطة البابا، ويميلون إلى الاستقلال عنه، ورأوا أن في الانفصال الديني عن كنيسة رومية زيادة في نفوذهم وسلطانهم، فروَّجوا لذلك الدعاية البروتستانتية في بلادهم.

وصاحب الدعاية البروتستانتية هو لوثر، ولد سنة ١٤٨٣ ومات سنة ١٥٤٦، وهو ألماني الدم والمنشأ والوطن، بدأ حياته راهبًا، ثم صار أستاذًا للفقه في جامعة جوتبرغ، وفي سنة ١٥١٧ جاء المدينة راهب يبيع الغفرانات، فأعلن لوثر أن هذا العمل يناقض المسيحية، وعقدت على إثر ذلك مؤتمرات من الكهنة، نُوقش فيها لوثر، فأصرَّ على تخطئة كنيسة رومية، وطبع ثلاث رسائل يوضح فيها مذهبه وينتقد البابوية، وأذاع البابا منشورًا سنة ١٥٢٠ يجحد فيه آراء لوثر، فأخذ لوثر هذا المنشور وأحرقه على الملأ في جوتبرغ.

وصح عندئذ في أذهان الألمان أن النزاع بين لوثر وبين البابا هو نزاعٌ بين الحرية والتقييد، وبين القومية والمسيحية، فانضموا إلى لوثر.

وفي سنة ١٥٢١ ترجم لوثر التوراة والإنجيل إلى الألمانية، وكان لا يقرأ قبلًا إلا في لغة المسيحية — اللغة اللاتينية — وفي سنة ١٥٢٥ قطع الطريق بينه وبين رومية بأن تزوج راهبة، وعاش عيشة هنية إلى أن مات سنة ١٥٤٦.

والآن ماذا ربح العالم من خروج لوثر على كنيسة رومية؟ كان أول الرابحين الكنيسة الكاثوليكية نفسها، كنيسة رومية، فإنها عندما رأت الصدمات تتوالى عليها وأوروبا ينشق نصفُها عنها، ويعمل على إزالتها من الوجود؛ اضطرت إلى الاعتدال والضبط والإصلاح، فألغت بيع الغفرانات، ونزلت محكمة التفتيش عن بعض قساوتها، وضبط الباباوات أنفسهم، فلم يعد يرأس الكنيسة أمثال بورجيا، واصطلح حال الرهبان، وظهرت شيعة اليسوعيين، الذين كانوا مثالًا للهمة في خدمة الدين والعلم معًا.

وكان ظهور البروتستانتية ربحًا للحرية الفكرية؛ لأنها وإن كانت قد ظلمت وطغت أيضًا إلا أنها لم يكن بها محكمةُ تفتيش، ولا قتل ولا إحراق، ولا مصادرة مما كان فاشيًا وقتئذٍ.

ثم إن وجود مذهبين سهَّل على الناس الجرأة على دعاوى الكنيسة، وحرر البحث الديني بعض التحرير من القيود الاستبدادية التي كان يضعها البابا، ثم إن ترجمة التوراة والإنجيل للغات أوروبا الحديثة جعل الناس يدرسونهما وينقدونهما؛ لأنهما كانا قبلًا وقفًا على من يعرف اللاتينية، أما الآن فإن كل بروتستانتي صار يمكنه الدرس والنقد ما دام يقرأ لغة بلاده.

وليس من شأننا أن نبيِّن الفرق المذهبي بين البروتستانتية والكاثوليكية، وإنما خلاصة ما يمكن أن يقال في ذلك أن الكاهن في الكاثوليكية وسيطٌ بين المسيحي وربه، أما في البروتستانتية فهو مرشد فقط.

أرازموس

في هذا الفصل وفي بضعة فصول تاليةٍ سنُترجم لحياة طائفة من زعماء التفكير، كل منهم يمثل طرازًا خاصًّا من هذا التفكير من عهد النهضة إلى القرن الثامن عشر، وفي خلال هذه التراجم سيرى القارئ مناظر عدة للكفاح بين الفكر الإنساني، الذي يبغي الانطلاق والحرية، وبين القيود التي وضعها الجمود لحبسه وكبحه.

ويجب أن نضع في أول قائمة هؤلاء الأبطال «أرازموس» الذي وُلد سنة ١٤٦٦ ومات سنة ١٥٣٦؛ فإنه كان يمثل النزعة إلى الدرس والثقافة، وليس شيء يعمل للحرية الفكرية، ويضمن بقاءها، ويحث على الدفاع عنها مثل الثقافة الواسعة المتشعبة؛ لأن الوقوف على الآراء المختلفة والمتناقضة يُشبع القلب بروح التسامح وكراهة التعصب.

ولد أرازموس في هولندا، وكان يشبه «دافنشي» أحد رجال النهضة أيضًا في إيطاليا من حيث إن كليهما كان ثمرة السِّفَاح، وتربَّى في مدارس هولندا وأديارها، ثم رحل إلى باريس، ومنها إلى إنكلترا، حيث أقام بأكسفورد مدة، عرف فيها توماس مور صاحب الطوبى المشهورة، وهناك تعلم اليونانية، ثم ارتحل إلى القارة ثانيةً، وعاد إلى كمبردج بإنكلترا فدرس اليونانية.

وأخيرًا قرَّ قرارُه في بازل في سويسرا، وأخرج فيها معظم مؤلفاته، وكان يرتحل عنها ثم يعود إليها، حيث مات سنة ١٥٣٦.

ورأى أرازموس في حياته انقلابَين في الأفكار: أولهما اكتشاف أميركا سنة ١٤٩٢، وثانيهما ترجمة لوثر للكتاب المقدس سنة ١٥٢١، وكان هو نفسه جديرًا بهذا العمل الأخير، بل كان أجدر من لوثر به؛ لأنه كان أثقف منه وأعرف باللاتينية واليونانية، ولكن نزعته كانت أميل للثقافة والدرس منها إلى الكفاح والمصادمة.

بل يُمكن أن نقول إنه أحيانًا يخشى النار التي كانت تعد للمهرطقين، فكان يصادق الكاثوليك والبروتستانت معًا، ويعيش في إيطاليا حيث محكمة التفتيش، كما يعيش في ألمانيا حيث كانت تبلغ الحماسة للمذهب الجديد درجة التعصب المؤذي، وكان تنقُّله هذا بين المذهبين، ثم ثقافته الواسعة في أدب الإغريق والرومان القدماء، وإيضاح روح الجرأة الذي ابتعثه في النفوس اكتشاف أميركا؛ كل هذه جعلتْه يقول بالتسامح ويدعو إليه.

وأكبر مآثر أرازموس طبْعه للإنجيل سنة ١٥١٦ باللغة اللاتينية تقابلها الإغريقية صفحة بعد صفحة؛ فإنه بهذا العمل افتتح عصرًا جديدًا لدرس الإنجيل درسًا تاريخيًّا دقيقًا، ثم إنه محَّص كتب القدماء وحررها من نسخ النساخ، وأعاد طبعها، فابتعث في النفوس ذوق الدرس لهؤلاء القدماء. أما عن التأليف فإنه لم يضع سوى كتاب واحد هو «مدح الجنون» وسائر حياته قضاه في تحرير الكتب القديمة.

و«مدح الجنون» هذا من الكتب الفريدة، التي أثرت أثرًا كبيرًا في عصر النهضة؛ فإنه وضعه على طريقة «دون كيشوت» وضمَّنه المجون والتهكم على الأوضاع والأنظمة السائدة في عصره، تكلم فيه عن تنطُّع العلماء وجهل الجهلاء، ولم يترك فيه أحدًا ذا مكانة من البابا إلى الرهبان ومن الملوك إلى الجنود حتى آذاه بغمزة وعرَّض به، وعبرة الكتاب التي يستخرجها القارئ منه أن العالم حافل بالأغلاط والمساوئ، وأنه يحسن بنا أن نتسامح؛ لأنه ليس لأحد منا أن يعتز بعلمه ويتيه به على الناس، وأنه خير لنا أن ننظر إلى الإنجيل ليس باعتبار أنه شريعة للناس تسن لهم نظام الحكم والمعيشة؛ بل حسبنا منه أن يكون مرشدًا لنا في الأخلاق.

ومن الناس من ينقم على أرازموس أنه كان مع تشبعه بروح العصر، ومع معرفته بفضائح زمانه لم يعمد إلى الثورة كما فعل لوثر، وقد أجاب هو على ذلك بقوله: إنه «لو امتحن لفعل مثلما فعل بطرس» أي أنه ينكر سيده، وينكر الحق حقنًا لدمه.

والحقيقة أن مهمة الرجل كانت مقصورة على نشر الثقافة والنقد، فهو أديب درس وألَّفَ وعمم المعارف، ولم يكن خطيبًا يُكافح ويناضل.

رابليه

ولد رابليه في إقليم تورين في فرنسا سنة ١٤٩٠ ومات سنة ١٥٥٣، وتعلَّم في مدارس الرهبان في فرنسا، وسلك في سلك الرهبانية إلى أن بلغ الأربعين حين جحد حياة النسك، وخرج إلى الدنيا سنة ١٥٣٠.

ومما يؤثَر عنه مدة تلمذته أنه أكب على الإغريقية، فتعلمها، وضبطت في صومعته عدة كتب لهيرودوتس وغيره، فطرد من الدير، وانتقل إلى دير آخر أخف رقابة منه.

وخرج من الرهبانية وهو في الأربعين، فتتلمذ من جديد ودرس الطب في مونبلييه، ونال لقب الدكتوراة بعد سبع سنوات سنة ١٥٣٧، والتحق بمستشفى ليون، وهناك أخذ يحرر الكتب القديمة، ويطبعها على نحو ما كان يفعل أرازموس، وزار إيطاليا وألمانيا، ثم عاد إلى باريس ومات سنة ١٥٥٣.

ويمتاز رابليه على أرازموس بشيء آخر غير حب الثقافة والدرس ونشر الكتب القديمة؛ وذلك أنه نزع نزعة علمية، فأخذ يدرس التشريح، وكانت الكنيسة تنكر هذا العلم إنكارها للتوسع في درس القدماء؛ إذ كانت تخشى من القدماء روح الحرية التي كانت تتسم بها كتب الإغريق والرومان، كما كانت تخشى أيضًا نبش النسخ الإغريقية القديمة للكتاب المقدس، ومعارضتها بما كان شائعًا منه، وكانت أيضًا تخشى الروح العلمية؛ لما فيها من نزعة التجربة، وإيثار حكم الواقع على حكم التقاليد.

ويُعزى إلى رابليه أكبر حادث في الأدب الفرنسي، فإنه في سنة ١٥٣٢ تجرأ ووضع أول كتاب باللغة الفرنسية العامية، وكان قد مضى على فرنسا أكثر من ألف سنة لا يقرأ فيها من الكتب سوى ما كانت لغته باللاتينية، فكان الفرنسي إذا أراد أن يخرج من الأُمية وجب عليه أن يتعلم هذه «الهيروغليفية» يتعلمها متعسرًا، ويقرأها متعسرًا، ويرطنها مع الرهبان رطانة قلَّما يستطيع أن يؤدي بها أبسط أفكاره، فإذا خرج من

الدير أو من المدرسة تكلم مع بني وطنه بالفرنسية، فكان يفكر برأسين: رأس يشافه به الناس في الأسواق والمنزل والحقل، ولغة هذا الرأس هي الفرنسية، ورأس يحتفظ به للكتب والدرس والثقافة، ولغة هذا الرأس هي اللاتينية.

ووضع رابليه كتابًا بلغة العامة هو كتاب «حياة جرجنتوا وابنه بنطجرويل وأقوالهما وأعمالهما» وهو أسطورة عن عملاقين تخيلهما رابليه من عالم الوهم؛ لكي يحمل بهما على عالم الحقيقة، وغايتُه أن يُثبت أن الأصل في طبيعة الإنسان طيبة العنصر وصدق النظر وصحة الحكم، وأنه لا يفسده سوى التقاليد والقيود التي يضعها الدين.

ومع أن الكتاب خياليُّ اللهجة والأشخاص فإن جامعة السربون جحدتْه، وحكم برلمان باريس بإحراقه، ولم يُضطهد رابليه بأكثر من ذلك؛ فإن اللهجة التي اتخذها في رواية أسطورته كانت حائلًا دون محاكمته.

وتنحصر خدمة رابليه للحرية الفكرية في أنه:

(١) أطلق الذهن الفرنسي من قيود الأداء اللاتينية، وجعل الفرنسية لغة الثقافة والدرس.

(٢) نزع نزعة علمية بدرس التشريح.

(٣) سار في النهج الذي اختطَّه قبله أرازموس بدرس القدماء وتوسيع الذهن بالوقوف على فلاسفة الإغريق والرومان، وتحرير كتبهم.

(٤) وضع الطبيعة البشرية أمام التقاليد الدينية، وآثر الأولى على الثانية.

سوزيني

سبقت إيطاليا سائر الأمم الأوروبية في ترويج النهضة، وكانت إيطاليا خاصة تمتاز في طبع الكتب أو نسخها من سائر الأقطار، ففي القرن السادس عشر — بينما كان لا يوجد في إنجلترا سوى ست عشرة بلدة بها مطابع وبألمانيا عشرون — كان بإيطاليا مائة بلدة تحتوي كل منها على مطبعة، تعمل ليل نهار جادة في طبع الكتب ونشرها على الناس.

وكان الأمراء الذين يروجون الدعاية للنهضة في إيطاليا عديدين: منهم البابا نقولا الخامس، ومنهم الفونس أمير نابولي، ومنهم أسرة مديتشي، ومنهم البابا ليون العاشر، فإن كل هؤلاء وغيرهم كانوا يكثرون الكتبة لنسخ الكتب القديمة من الأديار لمكاتبهم، أو كانوا يأمرون بطبعها ونشرها على الناس.

وأنت — أيها القارئ العربي — يجب أن تذكر أن أول ما طبع من الكتب العربية في العالم إنما كان في إيطاليا بأمر باباوات رومية.

ولكن مع أن إيطاليا تولَّت زعامة النهضة مدة طويلة، وأخرجت من مطابعها مئات الكتب، التي كانت محبوسة في أديارها، ونشرتها على الناس — فإنها لم تتأثر قط بالنهضة الدينية، بل بقيت كما كانت كاثوليكية، وعاشت فيها محكمة التفتيش إلى سنة ١٨٧٠، ويرجع ذلك إلى إقامة البابوية في رومية، وتسلُّطها على البلاد بجيش جرار من الكهنة والرهبان، فقد كانت رومية منذ القرن الرابع المسيحي إلى الآن معسكر النصرانية الأكبر، ينضوي إلى لوائها جميع الأولياء لهذا الدين.

ولكن مع جدب التربة الإيطالية لبذور الإصلاحات الدينية نجد أن شهوة التطور الديني قد تملكت بعض الأفراد والأسر في إيطاليا، وأسرة سوزيني تعد في طليعة هؤلاء،

نشأ منها اثنان عمل كلاهما للتحرير الديني في إيطاليا، وسنقنع بترجمة واحد من هذه الأسرة هو «فوستوس سوزيني».

ورث فوستوس عن جده ضيعة صغيرة، ولم يتزوج إلا بعد أن بلغ الخمسين، فاستطاع أن يعيش مستقلًّا، يرصد وقته للدرس، خاليًا من هموم العائلة والمعاش، وزار فرنسا، وأقام في ليون مدة، ثم عاد إلى إيطاليا سنة ١٥٦٣، واجتاز في عودته بمدينة جنيف، فرأى حكومة كالفن، وكيف تكون المسيحية عندما تستحيل شريعة يتعامل بها الناس مما سنشرحه بعد.

وأمضى بعد ذلك ١٢ سنة في خدمة إحدى أميرات أسرة مديتشي المدعوة إيزابلا، ثم غادر إيطاليا إلى بازل في سويسرا، حيث أكب على ترجمة المزامير إلى اللغة العامية الإيطالية، وأخذ في تأليف كتاب عن حياة المسيح، وقد أطلق على كتابه اسم «المسيح الخادم» وهو اسم ذو مغزًى، يدل على الروح الجديدة، التي صار ينظر بها الناس إلى المسيح وإلى الكنيسة.

فإن المسيحية كانت إلى هذا الوقت ديانة تمثلها كنيسة قوية، تسيطر على عقول الناس وأجسامهم، وتتخذ هيئة السيد أمام العبيد، ولكن فوستوس أراد أن يضع المسيح موضع الخادم للناس، وأن يعود الناس إلى ديانة المسيح التي نجدها في الإنجيل، ديانة التواضع والتسامح والخدمة العامة، لا ديانة بولس الشائعة في زمنه، ديانة الكنائس والكهنة ومحاكم التفتيش.

ولم يقع فوستوس بكلمة في كل ما كتبه يمكن محكمة التفتيش أن تؤاخذه عليها، وكذلك لم يذكر كتابه أو مزاميره المترجمة في «الدليل» فقد كان فوستوس يعيش — كما قلنا — بما يحمل إليه من ريع ضيعة صغيرة في إيطاليا، فكان لذلك يحرص على ألا يغضب محكمة التفتيش، التي كان أهون ما عندها من عقاب مصادرة المالك في ملكه، ومما ساعده على الحذر والحيطة في كتابه أنه كان أَصَمَّ، والصمم على الدوام من دواعي الحذر، وكان من حذره أن يصطنع أسماء مختلفة، وأن يداور في العبارة، ويقنع بالتلميح دون التصريح.

وكانت أوروبا في ذلك الوقت ميدانًا للحماسة الدينية، يقتتل فيه المذهبان القديم والجديد أو الكاثوليكية والبروتستانتية، وكانت بولندا في ذلك الوقت ملجأً للأحرار، فقد كان لها برلمان غريب، لا يمكن أن يصدر عنه قانونٌ ما دام عضوٌ واحدٌ يعارض في إصداره، فكان هذا النظام مانعًا من اشتراع أَيَّة شرعة يراد بها اضطهاد أحد.

وكان في بولندا طبيب إيطالي، قرأ تاريخ المسيح، الذي أَلَّفه سوزيني، فأُعْجِبَ به، واستدعاه من بازل إلى بولندا، فرحل من بازل إلى بولندا، وقضى فيها سائر عمره إلى أن مات سنة ١٦٠٤، وهناك — في بولندا — وضع كتابه «تعليم راكوف» في ضرورة التسامح ننقل منه هذه القطعة الآتية:

> فلندع كل إنسان حرًّا للحكم على دينه؛ لأن هذه هي القاعدة التي يبسطها لنا «العهد الجديد» ولأننا نجد تعاليم الكنيسة الأولى تقول بها، ومن نحن — نحن الأشقاء — حتى نحنق ونطفئ في الآخرين نار الروح المقدسة، التي أشعلها الله فيهم؟ هل احتكر أحد منا معرفة الكتب المقدسة؟ ولم لا نتذكر أن سيدنا الوحيد هو يسوع المسيح، وأننا جميعنا إخوة ليس لأحد منا أن يسيطر على نفوس الآخرين؟ وليس من ينكر أن يكون أحد منا أعلى من الآخرين، ولكننا نستوي جميعًا في الحرية وفي علاقتنا بالمسيح.

وهذا كلام بديع، ولكنه جاء في غير أوانه، فإنه عندما نشر كتاب سوزيني عن المسيح في كراكوف حدث هرج واضطراب في المدينة من العامة، كاد يودي بالمؤلف، وكان أكبر ما دعا العامة إلى الاضطراب إنكار سوزيني لعقيدة التثليث.

مونتين

للوسط تأثير في مزاج الشخص من حيث التسامح أو التشدد، كما أن له تأثيرًا في اعتباره للفضائل وقيمة ممارستها، فالتجار — مثلًا — أحرص على إنجاز وعودهم من الزُّرَّاع والصُّنَّاع والموظفين. وليس ذلك لأنهم أشرف نفسًا أو أدق ذمة؛ وإنما هم يحافظون على وعودهم؛ لأن التجارة تتطلب ذلك، ولا نجاح لها إلا إذا كانت كلمة التاجر التي يشافه بها تاجرًا أو معاملًا تقوم مقام الوعد المكتوب.

ومن رأى أعمال البورصة، وكيف تُقطع الوعود، فتأتي بالربح أو الخسارة، فلا يمكن أحد الطرفين التخلص منها، مع أنها لم تقطع إلا مشافهة، أو من رأى الصاغة، وهم ينقلون المصوغات الثمينة من حانوت إلى آخر بلا وزن؛ يعجب من مبلغ أمانة هؤلاء التجار، وخاصة إذا قابلها بما يعرفه عن سائر الأفراد من الصنَّاع أو الزرَّاع أو غيرهم، وليس مرجع هذه الأمانة إلى فضل خاص يختص به التاجر دون غيره، وإنما التجارة في ذاتها تحتاج إلى الأمانة الشديدة في المعاملة، وإنجاز الوعود الشفاهية، ومن هنا امتياز أمة تجارية مثل إنجلترا وسويسرا بالأمانة في المعاملة.

ولكن التاجر يمتاز بشيء آخر؛ وهذا لأنه لاحتياجه إلى معاملة جميع الطوائف من جميع الملل يضطر إلى التسامح، فصاحب الحانوت الذي ينتظر رزقه من كل غادٍ ورائح لا يستطيع أن يسب اليهود، أو يرفض بيع ما عنده من السلع للملحد، أو يأبى أن يربح في صفقة على يد كافر بدينه؛ لأنه يعرف أن التشدد — ناهيك بالتعصب — يحصر عدد معامليه في حين هو يرغب في زيادتهم؛ ولهذا السبب نجد المدن أكثر تسامحًا من الأرياف.

وقد نشأ مونتين في وسط تجاري، كان أبوه يتجر بالسمك، وكانت أمه ترجع في نسبها إلى دم إسباني يهودي، فكانت هذه الظروف الخاصة تعمل لكي ينشأ كارهًا

للتعصب، ثم رأى أيضًا في حياته مقتلة سان بارتولوميه سنة ١٥٧٢، حين فتكت الكنيسة الكاثوليكية والحكومة بنحو ٢٥٠٠٠ فرنسي بروتستانتي، ورأى أن الكنيسة لم يثب إليها رشدها بعد هذه المقتلة الفظيعة، بل تغلغلت في الضلال والفساد، وأنشأ البابا غريغوري الثالث عشر نوطًا في ذكر هذه المقتلة.

ولد مونتين سنة ١٥٣٢ ومات سنة ١٥٩٢، وتعلَّم اللاتينية ودرس القانون، وتعين قاضيًا في المحاكم الفرنسية، ثم ساح في سويسرا وإيطاليا وألمانيا، ثم عاد إلى فرنسا، حيث صار محافظًا لمدينة بوردو، وبعد ذلك عاش في باريس.

ويُذكر مونتين الآن بمقالاته التي عالج فيها جملة مواضيع، ومن هذه المقالات واحدة عنوانها «عن حرية الضمير» تكلم فيها عن يوليان الإمبراطور الكافر، وجعله مثالًا صالحًا للتسامح الذي يجب أن يتصف به الملك أو الأمير؛ حتى يعيش في كنفه جميع الناس مهما اختلفت عقائدهم الدينية.

وقد احتاج مونتين إلى مداراة الكنيسة، فكان يذهب للصلاة كل أحد؛ ليتقي بذلك غضب الكهنة، وكان لا يقول برأي إلا بلهجة الاعتدال في صورة التساؤل: «ماذا نعرف؟»

وكان من أثره أنه خفَّف ضغط الكنيسة للناس، وطبعت مقالاته الأذهان بطابع التسامح الذي تتسم به الثقافة الأوروبية الآن.

برونو

في سنة ١٦٠٠ في رومية — المدينة الخالدة — في اليوم السابع عشر من فبراير جمع كدس كبير من الحطب، وأخرج من السجن رجل كان قد قضى فيه ست سنوات، وكان الرجل شاحب الوجه، نحيل الجسم، مضت عليه أيام وهو يؤخذ من سجنه إلى محكمة التفتيش، فيطلب منه كهنة المحكمة أن يجحد مقالاته في المسيح والله والقيامة، فيرفض الرجل، فيعاد إلى السجن، ثم يعاد استجوابه، فيصر الرجل على الرفض.

وأخيرًا تحكم عليه محكمة التفتيش بالإحراق، فيسمع الحكم وهو هادئ مطمئن، ويخرج من المحكمة إلى النار التي أعدَّها شياطين الإنس، وهو يقول لكهنة المحكمة: «لعلكم أيها القضاة وأنتم تنطقون بهذا الحكم تحسون من الفزع والرعب أكثر مما أحس أنا عند سماعي له.»

ويُساق عندئذ إلى النار، فلا تمضي دقائق حتى يصير رمادًا.

هذا الرجل هو برونو الإيطالي، ولد سنة ١٥٤٨ واستُشهد سنة ١٦٠٠، نشأ في نابولي، وترشح للرهبانية، ورسم راهبًا دومينيكيًّا.

ثم وقع له أنه لا يؤمن بالإنجيل، فهجر إيطاليا، وجاب أقطار أوروبا، يطرأ على البلدة، فيقيم بها أيامًا أو أشهرًا، حتى إذا علمت الشرطة بخبره أعلنوه بتركها، فيرحل عنها إلى غيرها، وهو على وجل متصل من الكبس والمصادرة؛ وذلك لأن برونو كان يختلف عمن سبقوه من رجال الحرية الفكرية من حيث الجرأة والغلو.

فبينما كان أولئك ينكرون بعض العقائد في الإنجيل كان هو ينشر الإنجيل كله، ويجاهر بعدم ربوبية المسيح، فلم يكن يلقى غير النظر الشزر من جميع المسيحيين المتعصبين والمتسامحين الكاثوليك والبروتستانت، وبينما كان رجال النهضة يقولون

بالرجوع إلى الإغريق كان هو ينكر على جميع القدماء أي سلطان على الفكر، ويقول مع دلاراميه الفرنسي: «دعوا الموتى يدفنون موتاهم.»

ومضى برونو في رحلاته فأقام أشهرًا في تولوز، ثم انتقل إلى باريس، وهناك تعين موظفًا في سفارة فرنسا بلندن، فرحل إلى لندن ثم عاد إلى ألمانيا، ومنها قصد إلى براغ.

وفي كل هذه البلدان لم يجد أحدًا يحميه من الكبس والطرد، وكانت شهرته تسبقه، فلا تكاد قدماه تطآن إحدى البلاد حتى يرى مندوب الحكومة يستعجله في الرحيل.

ولكنه طول هذا الوقت كان لا يهدأ عن الكتابة، يتهكم بالدين، ويحمل على المضطهدين، وتجري على قلمه مثل هذه العبارات المخطرة: «ليس للحكومة الحق في أن تعيِّن للناس تفكيرهم» أو: «ليس للهيئة الاجتماعية أن تُعاقب بالسيف أولئك الذين ينشقُّون عن عقائدها الشائعة.»

وكان لأرسطوطاليس في عهده سلطانٌ يشبه سلطان الدين، حتى كان الطالب في جامعة أكسفورد يغرم بغرامة قدرها عشرة شلنات إذا هفا هفوة تخالف تعاليم هذا الفيلسوف، وكان برونو قد أخذ يدرس الفلك، فكان يكفر بتعاليم أرسطوطاليس في الفلك، ويجاهر بتأييده لنظريات كوبرنيكوس، وكوبرنيكوس هذا من رجال النهضة الذين جحدوا فلك القدماء، وقال بأن الأرض تدور هي وسائر الكواكب حول الشمس.

وعلى ذلك كان كفر برونو مزدوجًا بالإنجيل وبالقدماء، فما هو أن يمم شطر البندقية، وهدأ بها أيامًا حتى كبسه رجال محكمة التفتيش، وحملوه إلى رومية حيث بقي أكثر من ست سنوات يُعاني مرارة السجن وآلامه، وفي ختام هذه الآلام أشعلت النار أمام جمهور من أهل رومية يطيف به، وهو يمشي إليها بقدم ثابتة.

ولكن الدرامة لم تتم فصولًا، فإن برونو تقدم إلى النار سنة ١٦٠٠، وقلبه معمور بإيمانه بنفسه وبالحقيقة، لا تدمع له عين، ولا ترتجف له يد، وبعد ٣٠٠ سنة من إحراقه كان البابا يبكي؛ لأن أهل رومية قد أقاموا تمثالًا لبرونو في المكان الذي أُحْرِقَ فيه.

وهكذا يُكتب الانتصار للحرية على الاستعباد …

وليس يجدي القارئ أن نسرد له عقائد برونو في العلم والدين؛ لأنه هو نفسه لم يستشهد من أجل هذه العقائد بالذات، بل من أجل حقه في الحرية الفكرية في أن يعتقد ما يشاء، وإنما نقول: إنه كان يمتاز بمسحة «حديثة» على عقائده، فكان يقول بأن النجوم شموسٌ حولها كواكبها، تدور أرضنا وسائر الكواكب حول الشمس.

وكان يقول: إن الله هو روح المادة، وإن الكون غير متناهٍ.

وكان يقول — كما قال ابن رشد من قبل: إن الدين إنما نقصد به منفعة العامة فقط، أما العلماء ففي غنًى عنه بعلمهم.

الدين شريعة

ليس هذا الكتاب دعوةً إلى كراهية الدين، وإنما هو دفاعٌ عن حرية الشخص في اختيار دينه كما يراه في مرآةِ ذهنه وضميره، وبعبارة أخرى نقول: إن الدين يؤذي الناس إذا كانت الحكومة تسومهم إياه؛ لأنه يقف حاجزًا دون حرية التفكير وحرية الاعتقاد.

وليس إنسانٌ يستطيع أن يعيش بلا دين ما لم يكن أبله أو مغفلًا؛ لأن الدين ليس في الحقيقة سوى استقرار الفرد على علاقةٍ ما بينه وبين الكون أصله وغايته وما فيه من ناس وحيوان، فدعامة الدين يجب أن تكون قوة داخلية نابعة من الذهن نؤمن بها إيماننا بالحقائق العلمية المجربة، وليس يجوز أن تكون سلطة خارجية تأمرنا بالإيمان فنؤمن، فإذا لم نؤمن عُوقبنا بالجلد أو الحبس أو القتل.

ثم يجب أن نذكر أن العقائد التي تأمر بها سلطة خارجية وتطالبنا بممارستها لا يمكن أن تكون سوى قواعد، والقاعدة جامدة جمود الحروف المؤلَّفة منها كلماتها، ولكن حياة الإنسان دائمةُ التطور، والتطور هو التحوُّل من حال إلى حال، فمثل هذه العقائد إذن يجب أن تتناقض مع الحياة وتتعارض مع رُقِيِّ الإنسان، إلا إذا أُتيح لها علماء يقومون بتفسيرها بحيث لا تتناقض مع روح الزمن.

أما إذا لم يتح ذلك فإنه يجب عندئذ إما أن تجمد الأمة وتموت، وإما أن تخلع هذه العقائد عنها، ونحن في هذا الفصل سنَعرض لاثنين حاول كلٌّ منهما أن يجعل الدين شريعة جامدة.

وأول هذين الاثنين هو «كالفن» الذي وُلد سنة ١٥٠٩ ومات سنة ١٥٦٤.

وهو رجلٌ فرنسيٌّ، اعتنق البروتستانتية وهو في سن الشباب، وتحمس لها، ودرس القانون، وعاش في باريس، ثم رحل إلى بازل حيث وضع كتابًا عن المسيحية، ثم انتقل إلى جنيف، ولكن أهالي هذه البلدة لم يطيقوا حماسته وطردوه، فذهب إلى ستراسبورغ،

ولكنه لم يبق طويلًا بعيدًا عن جنيف؛ فإن حزبه قوي وتكاثر حتى استدعاه إلى المدينة، وكانت الدعوة من البلدية ومن الكهنة ومن الأهالي فلم ير كالفن بُدًّا من الاستجابة لدعوتهم، فعاد إلى جنيف وشرع في برنامج عجيب.

إنما يجب أن نعرف أنه في جميع أحكامه المخطئة كان مجتهدًا اجتهاد الغزالي، كلاهما ينوي في قلبه الإخلاص، وإنما الخطأ جاء لكليهما من النظر الديني لأحوال هذا العالم.

فقد عرفنا من نزاهة الغزالي أنه ترك منصبه في المدرسة النظامية، وترك عائلته، ونسك نحو عشر سنوات، والآن يجب أن نعرف من نزاهة كالفن أنه عندما مرض بالمرض الأخير الذي مات فيه؛ رفض أن يقبل مرتبه؛ لأن المرض منعه من أن يخدم به حتى يستحقه، وعندما مات سنة ١٥٦٤ قال فيه البابا بيوس الرابع: «إن قوة هذا الهرطيق ترجع إلى أنه لم يكن يبالي بالمال.»

ويجب أن نذكر أن عصر كالفن كان عصر الحدة الدينية، ففي السنة التي خرج فيها كالفن من أحضان الكنيسة الكاثوليكية سنة ١٥٣٤ أسس «أغناطيوس لويولا» فرقة من اليسوعيين للدفاع عن المذهب القديم، ورأى العالم الأوروبي أن عصر المجانة قد مضى، وأن الظفر سيُكتب للجادِّ في دعوته.

فما هو أن هدأ كالفن في جنيف حتى شرع يكتب للناس شريعتهم الجديدة، ويفحصهم ويسائلهم عن المذهب الجديد، يجمعهم كل عشرة معًا، ويأخذ في تعيين ما يجب، وما لا يجوز أن يؤمنوا به، وبعد ذلك أقنع مجلس المدينة بطرد جميع من يؤمن بالكاثوليكية، ثم أَلَّف مجلسًا يشبه محكمة التفتيش، يفتش ضمائر الناس، فمن روى أنه يعتقد من العقائد ما يغاير مذهب أهل جنيف طلب منه أن يجحد عقائده، فإذا رفض أُخْرِجَ من المدينة ومُنِعَ من الإقامة فيها.

ولكن الهرطقة لم تكن العلة الوحيدة للعقاب، فإن كلمة واحدة ينطق بها على سبيل الفكاهة رجل يحضر عرسًا وقت كتابة العقد أمام الكاهن كانت تكفي لعقابه بالحبس، وإليك شيئًا من المحرومات التي حرمها كالفن على أهل جنيف: الرقص، والغناء، واللعب بالكوتشينة، والمقامرة، ولبس الحرير.

وهذا كله لأن كالفن أراد أن يجعل المسيحية شريعة مدنية جامدة، ولكن جنايته التي تضعه في صف السفاحين هي قَتْله لسرفيتوس، فقد كان هذا الرجل إسبانيًّا، تربَّى في فرنسا، ودرس الطب والفلك والإغريقية والعبرية، وقاده سوءُ بخته أن يدرس

اللاهوت، واهتدى في أبحاثه الطبية إلى معرفة الدورة الدموية، ثم ذهب في أبحاثه الدينية إلى أن عقيدة التثليث عند المسيحيين — وهي أن الأب والابن والروح القدس إلهٌ واحد — خطأ لا أصل لها، وبلغ من سذاجته وسلامة نيته أن كتب إلى كالفن خطابًا يرجوه أن يأذن له بدخول جنيف؛ لكي يلتقي به، ويتناقش معه في موضوع التثليث.

ولكن كالفن لم يبعث إليه برد ولا بدعوة، وكان سرفيتوس في ذلك الوقت في ليون بفرنسا، وعرف عنه إنكاره للتثليث، فقبضت عليه محكمة التفتيش، وأودعتْه السجن، ولكنه — لعلة لا تُعْرَفُ — استطاع أن يهرب، وذهب سرفيتوس إلى جنيف، ولكن لم يمض عليه يومٌ حتى قُبِضَ عليه، وشرع في محاكمته للهرطقة.

ومضت على المحاكمة ٧٢ يومًا قضي عليه في نهايتها بالإحراق، وفي هذا الوقت عينه أرسلت محكمة التفتيش في ليون إلى جنيف تطلب سرفيتوس الهرطيق؛ لكي يحرق في ليون، ولكن كالفن رفض تسليمه، وأراد أن يرى بعينه هذا الخصم العنيد يتقلى على الجمر.

وأحرق سرفيتوس وهو لا ينزل عن كلمة واحدة مما فاه به.

ودوى في العالم عندئذ أن البروتستانتية لا تختلف عن الكاثوليكية بشيء، وأنها تفتش ضمائر الناس، وتضطهد، وتقتل، وأن محاكمها الدينية لا تمتاز عن محاكم التفتيش.

ولنودع الآن سرفيتوس وقاتله السافل المخلص كالفن، ولننظر بمثال آخر كيف يكون الدين إذا صار شريعة جامدة.

لما انكسرت شوكة الكاثوليكية بظهور لوثر وخروجه على البابا؛ صار الناس يتجرءون على مساءلة أنفسهم وتفتيش ضمائرهم عن العقائد القديمة، وصاروا يجتهدون ويُعلنون آراءهم، وحوالي سنة ١٥٢٠ ظهر أحد الألمان وأخذ يدعو الناس إلى وجوب تعميدهم مرة أخرى عندما يبلغون سن الشباب؛ لأن التعميد في سن الطفولة — كما هو المتبع بين المسيحيين — لا يفيد الدخول في النصرانية؛ إذ إن الطفل لا يعقل العقائد، فإذا أردنا أن نؤمن حق الإيمان بالمسيحية ينبغي أن نعيد تعميدنا في الشباب، وكانت فرقته تسمى لذلك «المعيدين للتعميد».

وكان هؤلاء «المعيدون» يمتازون من سائر المسيحيين بالسير على حرف الإنجيل، يقولون بشيوعية المال والامتناع عن الحرب، ونحو ذلك من الآراء المزعجة للدول والكنائس معًا.

وفي سنة ١٥٣٤ كثر هؤلاء «المعيدون» في مدينة مونستر الألمانية، فطردوا أسقف المدينة، واستولوا على الحكومة، وشرعوا ينفذون الإنجيل والتوراة، ويمضون أحكامهما في الناس، فجعلوا الدين بذلك شريعةً مدنية جامدة، وافتتحوا للسكان المساكين عهد خراب لم يره العالم من قبل أو من بعد.

وكان أكثر حماسة في مذهب «الإعادة» رجل خياط يدعى يوحنا، كان يعمل للخياطة في النهار، فإذا كان المساء انتفض نبيًّا، ينطق بكلمات الإنجيل والتوراة كأنهما لم ينزلا إلا لأجله وحده، ولا يفهمهما أحدٌ غيره، فلما شرع المعيدون في تقليد الأحكام تناولوا كنائس الكاثوليك فهدموها، وجعلوا أديار الرهبان مساكنَ للفقراء، ثم جمعوا جميع ما في البلدة من الكتب — عدا الإنجيل والتوراة — فأحرقوها كلها، ثم نظروا حولهم فإذا بالمدينة بعض جماعات لا تزال تصر على الإيمان بغير ما يؤمن به هؤلاء المعيدون، فلم يكن بأسرع من أن قبضوا عليهم، وأغرقوهم، أو قطعوا رءُوسهم.

فلما زال من المدينة رجس الهراطقة، ونجاسة الكتب، ولم يبق بها سوى المعيدين الأطهار والإنجيل والتوراة؛ تفكر يوحنا الخياط، فالتمع في ذهنه خاطرٌ جليل، وهو أن يحكم مونستر كما كان سليمان الحكيم يحكم مدينة أورشليم، فذهب إلى سوق المدينة وأقام عرشًا ثم تَبَوَّأه، ثم قسَّم سكان المدينة اثني عشر سبطًا كما كانت أسباط إسرائيل، ثم تذكر أن سليمان الحكيم لم يقتصر على امرأةٍ واحدة، فأضاف زوجات أُخرى على زوجته، وكان لسوء حظه حسن الذاكرة، جيد الفهم للتوراة، فقادته ذاكرتُه الحسنة وفهمُه الجيد إلى أنه كان لسليمان الحكيم سراري أُخَرَ غير زوجاته، فاتخذ الملك الخياط سراري أُخَرْ غير زوجاته.

وكانت الحكومةُ السابقة المطرودة قد جمعت جيشًا، وحاصرت المدينة، ومنعت عن مونستر التمون مما حولها فعَمَّ القحط، ولكن الملك لم يكن يبالي بذلك، فكان يقعد كل يوم على عرشه في السوق، ويأخذ من الغنيِّ ويعطي المحتاج، ويمتشق الحسام لقتل المخالفين.

ولَمَّا رأى القحط يزداد أمر الأهالي بزراعة الشوارع، ولكن المحاصِرين لم يمهلوا السكان إلى وقت الحصاد؛ فإنهم فتحوا المدينة بعد حصارها بخمسة أشهر، وقبضوا على الخياط، ووضعوه في قفص، وطافوا به، ثم قتلوه أشنع قتلة.

قتال الكاثوليك والبروتستانت

عندما نقرأ الآن الصحف نجد أن معظم الأخبار خاصة بالرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، وبإضرابات العمال والتعاون والنقابات ونحو ذلك، وكلها تدل على أن المسائل الاقتصادية هي الشغل الشاغل لأذهان الساسة الآن.

ولكن الحال كانت تختلف عن ذلك في القرنين السادس عشر والسابع عشر، فإن الذي كان يشغل الأذهان في ذلك الوقت هو المسائل الدينية، وكانت مع ذلك تشغلها بحدة وشدة، فإننا نسمع الآن عن دسائسَ سياسية صحيحة أو مزعومة، وعن هياج للعمال يُقتل فيه واحدٌ أو اثنان، ولكن في ذلك الوقت كانت تنشب الحروب فَيُقْتَلُ فيها الآلاف، وتخرب البلاد فيهلك سكانها بالملايين، وكل ذلك من أجل الدين، ومن الكراهية المتبادلة بين الكاثوليك والبروتستانت.

ولكن قبل أن نذكر الحروب المذهبية والتنافس الحربي بين الكاثوليك والبروتستانت يجب أن نشير إلى ما كان من نتائج التنافس السلمي بينهما، فإن كل طائفة صارت تغار على أبنائها، وتخشى من تسرُّب العقائد الفاسدة إلى نفوسهم، فكانت لذلك تؤسس المدارس لتلقين الصغار بالعقيدة الصحيحة، وظهرت فرقة اليسوعيين سنة ١٥٣٤ لهذا الغرض، فإنها عندما رأت نشاط البروتستانت خشيت أن تتضعضع الكنيسة القديمة أمامهم، فتأسست لهذا السبب المدارس اليسوعية، وكانت سندًا عظيمًا استندت إليه الكاثوليكية.

وحسب القارئ أن يرى الآن نشاط اليسوعيين في مصر وسوريا ولبنان؛ ليقيس عليه نشاطهم في القرن السادس عشر في أوروبا، وحركة إنشاء المدارس الحديثة ترجع إلى ذلك العهد.

ثم يجب ألا ننسى أيضًا أن إنشاء المدارس قد روَّج الطباعة؛ لأن المطابع أصبحت تجد في الكتب المدرسية مادة تعيش منها. وهنا أيضًا يجب أن نضرب المثل بنشاط المدارس اليسوعية عندنا في طبع الكتب.

هذه هي بركات المنافسة الدينية السلمية، أما نكباتها وكوارثُها ففي الاضطهادات والمجازر والحروب. ولكن يجب أن ننبه القارئ إلى أنه كانت هناك اعتباراتٌ أخرى في الحروب الدينية غير الدين.

وأول هذه الكوارث إرسال فيليب — ملك إسبانيا — جيشًا على هولندا؛ لإخماد الحركة البروتستانتية، فقد قام في رأس فيليب أنه حامي ذمار الكاثوليكية، فبينما كانت محكمة التفتيش في إسبانيا تطارد المغاربة كانت جيوشه تحرق المدن وتقتل الناس في هولندا، وكان ذلك سنة ١٥٧٢، وهي السنة التي ذبح فيها نحو ٢٥٠٠٠ بروتستانتي في عيد سان بارتلوميه.

وانهزم فيليب في هولندا، فجهَّز أسطولًا لمقاتلة الإنجليز والهولنديين معًا سنة ١٥٨٨، وهنا يتضح للقارئ أن الدين كان تعلة وتكأة يتكئ عليها فقط، ولكن القصد هو الفتح، وقد انهزم الأسطول الإسباني، وأخذت هولندا وإنجلترا تستوليان على ممتلكات إسبانيا في آسيا.

ولكن أعظم الحروب الدينية بعد الحرب الصليبية هي حرب السنين الثلاثين التي بدأت سنة ١٦١٨، وانتهت بخراب ألمانيا تقريبًا سنة ١٦٤٨، ففي هذه الحرب حاول الإمبراطور فرديناند الثاني — وهو من أسرة هابسبرج — أن يمحو البروتستانتية من ألمانيا، فأرسل عليها جيوشه تُخَرِّبُ وَتُدَمِّرُ، حتى يقال: إن خمسة أسداس القرى والمدن الألمانية خربت، وإن الأهالي الذين كانوا ١٨ مليونًا نزلوا إلى أربعة ملايين.

ودخل جوستافوس أدولفس السويدي فدحر جيوش الإمبراطور، ثم استحالت هذه الحرب الدينية إلى حرب سياسية صريحة، فانضمت فرنسا الكاثوليكية إلى السويديين البروتستانت لقتال الإمبراطور، ودخلت الدنمارك البروتستانتية الحرب ولكن لا لقتال الكاثوليك وإنما لقتال السويديين البروتستانت، وكانت نتيجة هذا الخراب العظيم الذي نال أوروبا؛ أن الناس عرفوا قيمة التسامح لا حبًّا فيه، بل خوفًا من عواقب التعصب.

جاليل

ولد جاليل سنة ١٥٦٤ ومات سنة ١٦٤٢، وحياته كفاح متصل مع القدماء الذين أخذ على عاتقه هدمهم، ومع الكهنة الذين أوشكوا أن يجعلوا خاتمة حياته مثل خاتمة حياة برونو، ولكنه توقى هذه الخاتمة بأن رضي بأن ينكر ما قال.

كان جاليل إيطاليًّا، نشأ في أسرة شريفة، وَتَرَبَّى التربية العالية، التي كان يحصل عليها أبناء الأشراف في إيطاليا، وقد أبدى من الذكاء والميل إلى الدرس ما جعله أُستاذًا في جامعات إيطاليا في الرياضة والميكانيكا.

وحدث في سنة ١٦٠٩ أنه سمع بأن أحد البلجيكيين قد اخترع زجاجة إذا نظر من خلالها جعلت الشيء البعيد قريبًا، فأكب على درس هذا الاختراع، واخترع التلسكوب، وأخذ في درس الفلك، واخترع جاليل شيئين آخرين كان لهما أيضًا أكبر الأثر في النهضة العلمية، وهما: الميكروسكوب والترمومتر.

وربما لم يكن لهذه المخترعات في نظر الكهنة من القيمة في زمنه مقدار ما كان لتخطئته لأرسطوطاليس في زعمه بأن الأجسام الثقيلة أسرعُ في السقوط من الأجسام الخفيفة، فقد كذب جاليل هذا الزعم، وأثبته بالتجربة بأن ألقى جسمين أحدهما خفيف والآخر ثقيل من قمة برج بيزا، فوقع الاثنان في وقت واحد على الأرض، واستنتج جاليل أن سرعة السقوط إنما تتوقف على بُعد المسافة لا على ثقل الجسم، وكذب أرسطوطاليس أيضًا في زعمه بأن الأرض مركز الكون، وقد كان لأرسطوطاليس من الحرمة في الكنيسة ما يكاد يشبه حرمة الإنجيل.

ونزع جاليل نزعة علمية قائمة على التجربة، فاستعمل تلسكوبه الجديد في كشف السماء، فعرف بذلك من النجوم نحو عشرة أضعاف ما كان معروفًا منها بالعين

المجردة، وأظهره تلسكوبه أيضًا على القمر، فأخذ يرصده، ووجد أن وجهه «يشبه جدًّا سطح الأرض» فيه السهل والجبل.

واكتشف أقمارًا لجوبتر، ثم استنتج أن هذا الكوكب يشبه الأرض، ووقفه تلسكوبه أيضًا على بقع الشمس التي لا نزال نحن حائرين في ماهيتها، وكانت كل هذه الأبحاث تقوده إلى ما يقوله الآن علماء الفلك، وهو أن الكواكب والقمر قد تكون مأهولة بالناس مثل الأرض، وهنا بدأ الكفاح بينه وبين الكهنة.

وذلك أن الكتب المقدسة قد جعلت الأرض مركزًا للخليقة، ووجدت من أرسطوطاليس تأييدًا لهذا القول، فأكبرت تعاليمه في هذه الناحية، وعوَّلَت عليها، ولكن جاليل وجد أن هناك من الكواكب ما هو أكبر من الأرض، فاستنتج أن الحياة لا يُمكن أن تكون امتيازًا خاصًّا بالأرض، وأنها كما نشأتْ هنا يجوز أن تكون قد نشأتْ هناك.

وبلغ محكمة التفتيش في إيطاليا هذه الهرطقة الجديدة سنة ١٦١٦، فكتبت إلى الكردينال بلارمين تأمره «أن ينهى جاليل عن هذه الآراء، وفي حالة رفضه يؤمر بالكف عن تعليم هذه الآراء أو الدفاع عنها أو حتى البحث فيها، وفي حالة مخالفته يُسْجَن.»

وسكت جاليل؛ فإن شبح النار التي أُوقدت لبرونو سنة ١٦٠٠ كان لا يزال قريبًا، ولم يكن جاليل يستمرئ نار الاستشهاد، فلما كانت سنة ١٦٣٠ أَلَّف كتابًا عن الفلك، وذهب إلى البابا يستأذنه في نشره، وكان موضوع الكتاب المهم هو تعليل حركة المد والجزر بازدواج حركة الأرض؛ أي بدورانها حول نفسها، وأيضًا بدورانها حول الشمس، فأذن له البابا بنشر الكتاب بعد أن اشترط عليه جملةَ شروط، كان أهمها أن يكتب في ختام الكتاب هذه العبارة «الله قادر على كل شيء … وكل شيء ممكن لديه، وعلى ذلك فليس يمكن أن يقال: إن المد والجزر برهان ضروري للحركة المزدوجة للأرض بدون تحديد قدرته على كل شيء.»

وقبل جاليل هذه الشروط، ونشر الكتاب سنة ١٦٣٢، ولكن في السنة عينها هاج رجال الدين، ومنعوا نشر الكتاب، حتى مع وجود هذه الخاتمة التي يكذب فيها جاليل نفسه، وانعقدت محكمة التفتيش سنة ١٦٣٣، وحكمت عليه بالسجن ثلاث سنوات، وأن يتلو المزامير السبعة مرة كل أسبوع، وأن ينكر كل ما قال.

أما من حيث الإنكار فقد كان جاليل سريعًا إلى إنكار ما يُطلب منه؛ لأنه كان يعرف أنه بعد إيراد الأدلة القوية على صحة نظريته ليس من المهم أن ينكر كل ما

يُطلب منه؛ لأن الأدلة هي سبيل الإقناع العلمي، وهي كلها مثبتة بالكتاب، فهو يَتَّقِي غضب الكنيسة باللفظ، ولكن يعتمد على التدليل العلمي في الإقناع.

نزعة الشك

القرن السابع عشر هو قرنُ الشك، نشأ فيه طائفة من العلماء والفلاسفة ينكرون طرق القدماء، ويقولون بالتجربة، ويدعون إلى الشك في الحقائق المزعومة حتى تجرب، وإلا فلا يجوز الإيمان بها. وأبطالُ هذه النزعة هم:

- بيكون الذي وُلِدَ سنة ١٥٦١ ومات سنة ١٦٢٥.
- وديكارت الذي وُلِدَ سنة ١٥٩٦ ومات سنة ١٦٥٠.
- وسبينوزا الذي وُلِدَ سنة ١٦٣٢ ومات سنة ١٦٧٧.
- وهوبز الذي وُلِدَ سنة ١٥٨٨ ومات سنة ١٦٧٩.
- ولوك الذي وُلِدَ سنة ١٦٣٢ ومات سنة ١٧٠٤.

وكل واحد من هؤلاء جديرٌ بفصل قائمٍ بنفسه في كتاب خاص بحرية الفكر؛ فقد عملوا كلهم لتحرير الفكر من التقاليد ومن السلطة، ولكننا سنقنع هنا بالإشارة المختصرة إلى كل منهم، وما يمتاز به من خدمة الحرية.

وأول هؤلاء هو «فرانسيس بيكون» وهو رجل مثل سميه القديم روجر بيكون، إنجليزي، يقول بوجوب التجربة، وعدم الاعتماد على شيء سواها من كتب القدماء، ووضع كتابًا سنة ١٦٢٠ أوضح فيه طريقته الجديدة، ومما قال فيها: «هناك من الأسباب ما يرجينا بأن نجد في بطن الطبيعة من الأسرار الكثيرة ما ليس له علاقة أو مشابهة بما نعرفه مما هو بعيدٌ البُعد كله عن خيالنا، ومما لم يُعْرَف بعد.»

وفي سنة ١٦٢٧ وضع طوبى تخيل فيها أمثل هيئة بشرية تعيش وغايتها الأصلية الاكتشاف والاختراع.

ولم يكن بيكون ينزع إلى الشك في القدماء فقط، وإنما كان يُنكر كل ما قالوه حتى تؤيده التجربة، وبينما كان علماء القرون الوسطى يقضون أعمارهم في درس القدماء، والجدل المنطقي الذي يحوم ويدور حول الألفاظ والفروض؛ كان بيكون يفكر في المستقبل، ويضع الطرق التي يجب اتباعها لكي تتقدم العلوم، وذلك بأن نذهب إلى الطبيعة رأسًا، ونخطب أسرارها، غير مقيدين بأية سلطة سوى سلطة التجربة التي تميز الفاسد من الصالح.

ويُقابل بيكون في إنجلترا «ديكارت» في فرنسا، ومن أسماء مؤلفاته تعرف الروح الجديدة التي أخذت تتفشى في عصره وهي روح الشك، فله كتاب يُدْعَى «قواعد لهداية العقل» وآخر يُدْعَى «بحث في الطريقة» وآخر يُدْعَى «مبادئ الفلسفة».

ويَبني ديكارت فلسفته على الشك في كل شيء، ولا يؤمن إيمانًا يقينيًّا بشيء سوى الفكر، ومن كلماته المأثورة: «إني أفكر فأنا لذلك كائن» وهو يشترط لإقامة بناء الفلسفة الجديدة هذه القواعد الأربعة:

(١) لا يصح قبول شيء على أنه حق ما لم تعرف ماهيته بغاية الوضوح؛ حتى لا يمكن الشك فيه.
(٢) تقسيم المسائل الصعبة إلى ما يمكن أن تشتمل عليه من الأجزاء؛ ليسهل إدراكها.
(٣) يبدأ في الدرس من السهل البسيط إلى الصعب المركَّب.
(٤) يستوعب البحث ويَستقصي ويُعمم النظر؛ حتى نتأكد بأننا لم ننس شيئًا.

وهذا الكلام يبدو لنا هينًا لينًا، ولكنه كان في القرن السابع عشر نارًا وكبريتًا على رجال الدين، وكان من يتهم باعتقاد الديكارتية يُعَدُّ كافرًا لا غش فيه، ولم يكن يقل عمن كانوا يتهمون بالداروينية في القرن التاسع عشر.

وقد أمضى ديكارت جزءًا كبيرًا من حياته في هولندا، ولا نعرف علة ذلك، وربما كان استحسانه لها يرجع إلى كثرة مطابعها، وسهولة وسائل النشر فيها.

على أن إقامته بهولندا — وإن لم يتعلم لغتها ولا وضع كتابًا فيها إلا بلغته الأصلية أي الفرنسية — قد أفادت، فإن أكبر حوارييه كان من يهود هولندا، وكان يُدْعَى «باروخ سبينوزا».

ففي أحد الأيام وجدت طائفة اليهود المقيمة بأمستردام أن واحدًا من أبنائها يُجاهر بإيمانه بديكارت، وبأنه لا يؤمن بأشياء في التوراة والتلمود، ولم يستطع ربَّانية

الطائفة أن يعاقبوه على ذلك؛ لأنهم كانوا قد ارتكبوا جُرمًا شنيعًا منذ زمن قليل، لم يكن قد نسيه بعد أهالي أمستردام، فلم يكونوا يرغبون في إثارة هذه الذكرى.

فقد حدث أن أحد اليهود البرتغاليين رحل إلى هولندا، وأبى كبرياؤه أن يخضع للربَّانية، وأن يواظب على الحضور للكنيس؛ فجلدة الربانية، وأهانه رجال الطائفة، وفعلت هذه الإهانة في نفسه أفاعيلها، فانتحر.

فلما وجد الربَّانية أن سبينوزا قد خرج على آراء التوراة والتلمود لم يلجئوا إلى العنف في إسكاته؛ خشية أن يتكرر حادثُ هذا اليهودي البرتغالي، ويتسامع أهالي المدينة بما يفعلونه بأحرارهم، فتَلطَّفوا وعرضوا عليه مبلغًا من المال؛ ثمنًا لسكوته، فأبى، وقنع الربَّانية بأن لَعَنُوه لعنة أبدية في الكنيس، وخلعوه من الطائفة، وحاول أحد المتعصبين أن يغتاله فأخفق، وبقي سبينوزا بأمستردام لا يبالي بالتوراة ولا بخناجر الغادرين من أبناء طائفته.

وأخيرًا لجأ الربَّانية إلى حكومة أمستردام؛ لكي تعاقب سبينوزا؛ لأنه لا يكفر باليهود فقط بل بكل شيء، بالله واليوم الآخر، ويعلن شكوكه في أشياء مقدسة يؤمن بها النصارى واليهود معًا، وانعقدت محكمة نصرانية لمحاكمته على هذه التهمة العمومية، ولكنها بَرَّأَتْهُ في النهاية، وقنعتْ بأن غادر المدينة مدة شهرين حتى تهدأ العاصفة.

وغادر سبينوزا أمستردام، وعرضت عليه مناصب للتعليم رفض قبولها؛ لئلا يضطر إلى تقييد حريته، وارتضى الفقر مع الدرس، وأقام في لاهاي يصنع العدسات ويبيعها.

ومن الصعب أن نلخص في كلمات فلسفة سبينوزا التي وضعها في مجلدات.

ولكن يجب أن نقول: إنها لم تكن من نوع ذلك البحر الطامي الذي فاضت به كُتُب الجدل اللفظيِّ العقيم، حتى كان مثل عمر الخيام يؤثر الخمر عليها، ويرى أن السكر الحادث من هذه خير من السخف الذي تقول به تلك المجلدات الضخمة.

كان سبينوزا يؤمن بأن حدود الأديان أضيقُ من أن تَسَعَ الفكر الإنساني، وأن هذا الكون المؤلَّف من ملايين النجوم بكواكبها هو وطن الإنسان الحقيقي، وأن الله متحد بهذا الكون وهو فكرته، وأن حرية المرء لا تتحقق إلا بالتخلص من شهواته واتحاده بالله.

وفي هذا الوقت عاش «هوبز» وهو معلِّم إنجليزي، كان يعلِّم أبناء الأغنياء، ويقضي معهم الأشهر العديدة في أوروبا؛ لأنه كان يجعل الرحلة من شروط التربية.

وعرف في رحلاته هذه «جاليل» و«ديكارت» و«بيكون» ونزع نزعتهم، وإن كانت العلوم الرياضية تغلب عليه، ثم أوفى عليهم بدرسه الفلسفة السياسية، ورأى من اضطهاد طائفة «الطهريين» في إنجلترا ما ألجأه إلى أن ينفي نفسه في أوروبا إحدى عشرة سنة.

فقد كان وضع كتابًا في الدفاع عن الملكية، وكانت الملوكية في إنجلترا في أسوأ حال؛ إذ كان «الطهريون» قد قتلوا الملك شارل الأول، وليس يمكن أن نقول: إن هوبز دعا إلى الحرية الفكرية، بل هو دعا بعكس ذلك إلى الخضوع لحكم ملك مستبد، وإنما أبحاثه في أصل الهيئة الاجتماعية، وأن الإنسان كان يعيش في فوضى وتوحش، ثم اتفق الناس على أن يسلموا السلطة لواحد أو أكثر من واحد لكي يحكمهم.

نقول: إن هذه الأبحاث فتحت بابًا جديدًا لتحرير الفكر بالبحث في أصل الحكومات وغايتها، وقد قبل البلاط الإنجليزي هذه الآراء، وكافأه عليها بمعاش سنوي مدى حياته، ولكن الكنيسة الإنجليزية حكمت بتكفيره لآرائه الدينية، واتهمته بالإلحاد.

وثم رجلٌ آخرُ وُلد في عام واحد مع سبينوزا، ولكنه أوفى عليه في العمر بسبع وعشرين سنة، حتى عاش أربع سنوات من القرن الثامن عشر، وهذا الرجل هو «لوك».

ولد لوك في إنجلترا، ووقع له في أحد الأيام كتاب هوبز في الدفاع عن الملكية فقرأه، وكثيرًا ما تَهْدم الكتب الموضوعة في الدفاع عن بعض المبادئ هذه المبادئ نفسها؛ لأنها تفتح أبوابًا لم يَلِجْهَا أحد من قبل، وقد يلجها القارئ فتنفتح عينه لأشياء لم تكن مفتوحة لها من قبل، ولا يُغني عندئذ دفاع المؤلف.

فقد تجد فلاحًا ساذجًا يؤمن بالله إيمانًا صادقًا، يسلم فيه بربوبيته وقدرته، وقد تُشكِّكه في دينه إذا أنت حاولت أن تثبت له وجود الله بطريق المنطق؛ فإن القارئ يجد أن هذا النوع يجرحها أكثر مما يؤيدها.

والعادة أن من ينزع إلى الجرأة في نقد الحكومة لا يمكنه أن يتخلى عن هذه النزعة في نقد الدين أو الهيئة الاجتماعية أو الأخلاق أو غير ذلك، وقد قرأ لوك — وهو طالب في أوكسفورد — كتاب هوبز عن الملكية، ورأى كيف أن «الطهريين» قد قتلوا الملك شارل الأول سنة ١٦٤٩ فتساءل هو: إذا كان للناس الحق في أن يخلعوا ملوكهم المستبدين، ويقتلوهم، ويمحوا استبدادهم؛ فلِمَ يرضون باستبداد الكهنة؟ ولم لا يختار الناس الأديان التي تقرهم ضمائرهم عليها؟

ولكن لوك وجد أن الجو لا يُلائم هذه النزعة، وأن رجال الدين يتهامسون بأنه ملحد، فرحل إلى أمستردام، ووضع هناك «خطابات عن التسامح» قال فيها: إنه لا حق

للحكومة بأن تدخل في ضمير المرء وتُمليَ عليه دينه، وإنها إنما أُقيمت برضا الناس واتفاقهم لحماية الأفراد وأمنهم، وكما أنه لا يجوز لها أن تعيِّن ما يأكله الناس وما يشربونه؛ كذلك لا يجوز لها أن تعين لهم المذهب الذي يؤمنون به.

وقد كانت أوروبا قد تفشَّت فيها المذاهب، فقال لوك ينتقد اشتغال الحكومات بالأديان، ووجوب تركها الناس أحرارًا:

> إذا كان للحكومات الحق بأن تملي على الناس كل ما يختص بسعادة أرواحهم المستقبلة؛ فإن نصف الناس قد حكم عليه منذ الآن بالهلاك الأبدي؛ لأنه لما كان من المستحيل أن يكون المذهبان صحيحين فمن المعقول أن جميع من وُلِدُوا في ناحية ما سيذهبون إلى السماء في حين أن من وُلِدُوا في الناحية الأخرى قد قضي عليهم بالذهاب إلى جهنم، وبهذه الطريقة يتقرر مصير الإنسان ونجاته حسب البقعة الجغرافية التي اتفق ميلاده فيها.

ومنذ ذلك الوقت أخذت الدعوة إلى التسامح تزداد وتَقْوى، ويكون لها دعاةٌ يجاهرون بها، مثل فولتير وتوم بين، ويستطيعون إنكار التقاليد، مجاهرين بذلك لا يخشون بطش الحكومات ولا الكهنة.

جلالة الملك فولتير

وُلِدَ فولتير سنة ١٦٩٤ ومات سنة ١٧٧٨.

يُحْكَى عنه أنه قال مرة: «وما عليَّ إذا لم يكن لي صولجان؟ أليس لي قلم؟»

وقد حق لفولتير أن يفاخر بقلمه كما يفاخر الملك بصولجانه؛ لأنه إذا كان للملوك ملك فلفولتير ملكوت، وإذا كان لكل ملك رعية مؤلفة من جميع الطبقات فلفولتير رعيةٌ راقية، مؤلَّفة من رجال الذهن في جميع أنحاء العالم، وإذا كانت الملوك تتفاضل بالأثر النافع الذي يتركه حكمها في رعاياها فأي ملك استطاع أن يؤثر في أذهان الناس بمقدار ما أثر وما سيؤثر فيها فولتير؟!

أجل، إن هناك ملوكية لا تتبوأ العرش الْمُذَهَّب، ولا تعقد على الرأس الإكليل المرصَّع، تلك الملوكية تكون بسعة الثقافة التي يشرف صاحبها على العالم، ماضيه ومستقبله، يرسم له مثله العليا ويوجِّه خُطاه نحوها، فقادة العالم الحقيقيون هم فلاسفتُه وعلماؤه الذين يرسلون صوتهم إلينا عبر القرون، فنسمع لهم، ونأتمر بأمرهم.

وفولتير واحدٌ من هؤلاء الملوك، تناول صولجانه فألَّف به نحو سبعين كتابًا، كلها في الدفاع عن رعيته؛ أي عن رجال الذهن والمفكرين. ولقد كتب في التاريخ ولكنه لم يبرز على أحد من المؤرخين، وكتب في الأدب ولكن بين الأدباء من يبذه، ولكنَّ له فضلًا واحدًا، وهو أنه أرصد قلمه وماله، وقوة جسمه الضعيف، وجاهه، وكل ما يملك في العالم؛ لإثبات حق كل إنسان في الحرية الفكرية، ولمكافحة الظَّلَمَة والمتعصبين والأغبياء.

ولعلك — أيها القارئ — قد سمعت عن «كاتو» ذلك الروماني العنيد الذي قضى أكثر من خمسين سنة وهو يصبح ويمسي فيقول للرومانيين: «يجب أن تُدمر قرطاجنَّة» حتى رأى بعينه تدمير قرطاجنَّة، وزالت دولة الفينيقيين التي كانت تخيف رومية،

فهذا فولتير قد فعل فعله، وقضى عمره وهو يصيح بالعالم الأوروبي عامة وبفرنسا خاصة: «اسحقوا أهل الخزي» وأهل الخزي والعار هم الذين يضطهدون الأحرار.

والعجب في فولتير هذا أنه حارب الكنيسة الكاثوليكية، وهدم سلطانها على الأحرار، وهو مؤمن شديد الإيمان بالله، بل لعل ذلك لم يكن عجيبًا، ولم يكن إيمانه إيمانًا فلسفيًّا، بل كان إيمان الهوى والعاطفة، حتى إنه لما قيل له: إن جبال الألب كانت في تاريخها الغابر تحت الماء بدليل أصداف المحار المتحجرة فيها؛ رفض أن يصدق هذا القول؛ لأنه ينافي وجود عناية إلهية، ترعى خلائق اليابسة وخلائق الماء.

وحدث في حياته زلزال لشبونة، ودُمرت المدينة، فتزعزع إيمانه قليلًا، ولكن هواه تغلب عليه، وعادت إليه عقيدته في الله، وإنما كان فولتير يكفر بالخرافات التي ترويها الكنيسة المقدسة، وكان إكباره لله يدعوه إلى الكفر بهذه الكتب.

وكانت أوروبا الشمالية في زمنه قد تحررت من قيود التعصب، وخفَّت فيها وطأة الاضطهاد أو زالتْ، وزار أيضًا ألمانيا، واختلط بفردريك الثاني، فرأى فيه ملكًا متسامحًا، لا يبالي أي دين يؤمن به رعاياه ما داموا يدفعون الضرائب، ويلتحقون بالجيش، فعزم على محو التعصب من فرنسا.

وكان برنامجه مزدوجًا، وهو أن يؤلف الكتب في مكافحة التعصب وأن يهيئ وسائل الدفاع للمنكوبين، الذين يحاكمون من أجل عقائدهم، ونحن هنا سنبدأ بالجزء الأول من هذا البرنامج، وسنقصر مهمتنا فيه على نقل أقوال فولتير، قال في كتابه «قبر التعصب»:

> إن من يتلقن دينه بلا فحص يكون كالثور يتقبل النير بلا معارضة.

ويقول في خطاب لولي عهد بروسيا:

> إن الدجاجلة هم وحدهم الذين يجزمون ويقطعون، فإننا لا نعرف شيئًا عن المبادئ الأولى، فمن الشطط أن نعين ماهية الله أو الملائكة أو العقول، وأن نعرف بدقة علة خلق الله للعالم، في حين أننا لا نعرف لماذا نرفع ذراعنا كلما شئنا، وليس الشك مما يرتاح له المرء، ولكن اليقين مدعاة الضحك والسخرية.

ويقول في كتابه «التسامح»:

> لا يحتاج المرء إلى براعة فائقة أو فصاحة نادرة لكي يبرهن على لزوم التسامح بين المسيحيين، بل بين جميع الناس على السواء، وقد تسألني الآن: هل يجب عليَّ أن أعتبر التركي أو الصيني أو اليهودي أخًا لي؟ أقول: أجل، أليس كلنا أبناء أب واحد وخلائق رب واحد؟!
>
> وقد تقول: هؤلاء النَّاس يحتقروننا ويعتقدون أننا وثنيون، فأقول: إذا كان الأمر كذلك فإني أخطئهم، وأظن أني أدهش المسلم أو البوذي وأكسر من شرة عناده إذا أنا قلت لهما ما يلي: «هذه الكرة التي نعيش عليها ليست سوى نقطة تسير في الفضاء مثل سائر الكرات العديدة الأخرى، والإنسان الذي يبلغ طوله خمس أقدام إنما هو شيء حقير في هذا الكون، وهناك في جنوب إفريقيا أو جنوب آسيا إنسان لا يكاد يرى، يقف ويقول للناس: اسمعوا، إن خالق هذه العوالم قد أوحى إليَّ، فعلى هذه الأرض ٩٠٠٠٠٠٠٠٠ نملة صغيرة مثلي، ولكن ليس عزيز عند الله سوى جحري، أما سائر الأجحار فالله يكرهها، ولن يكون بينها سعيدًا سوى جحري.»
>
> وعندئذ يسألونني: من هو هذا الأبله الذي نطق بهذا الهراء؟ فأقول لهم: إنهم هم أنفسهم يقولون ذلك، ثم أهدئ غضبهم.

ويقول أيضًا:

> لكي تدعي حكومةٌ ما الحق في أن تعاقب الناس على أغلاطهم يجب أن تتخذ هذه الأغلاط هيئة الجرائم، وهي لن تكون جرائم حتى تحدث القلاقل بين الهيئة الاجتماعية، وذلك بأن تؤدي إلى التعصب، وعلى ذلك يجب على الناس أن يتجنبوا التعصب؛ لكي يستحقوا التسامح.

وأيضًا:

> إذا أنت أصررت على أن الكفر بالدين السائد جريمةٌ فإنك تؤثِّم المسيحيين الأولين آباءك، وتبرئ أولئك الذين تنقم منهم اضطهادهم لهم.

ولننظر الآن إلى الجزء الآخر من برنامجه، وهو الدفاع عن المنكوبين الذين نزل بهم اضطهادُ رجال الدين والحكومات.

ففي سنة ١٧٦١ حدث أنه كان يقيم في مدينة تولوز رجلٌ بروتستانتي، يُدْعَى كالاس، له حانوتٌ بالمدينة، وكانت تولوز مشهورةٌ بتعصبها، تحتفل بعيد مقتل سان بارتلوميه كل عام، ومع ذلك استوطنها كالاس هو وعائلته، وكان في جرأته هذه متهورًا، قد أفرط في التفاؤل.

وحدث أن أحد أبناء كالاس تمذهب بالكاثوليكية، وأعلن الأب أمام جيرانه أنه لا يعارض أبناءه في اختيار أي مذهب يؤمنون به، ثم بعد ذلك حدث حادث آخر أخطر من هذا، وهو أنه كان لكالاس ابن آخرُ يُدْعَى مرقس يبلغ الثامنة والعشرين، وكان يرغب في دراسة القانون، ولكن البروتستانت كانوا محرومين من هذه الميزة، وكان هو بروتستانتيًّا متحمسًا لمذهبه، فلم يقدر على النزول عنه والتمذهب بالكاثوليكية كما فعل أخوه.

وأدى به هذا الصراع بين مصلحته وبين ضميره أن اختلَّ توازنه الفكري، فصار يخرج منفردًا، ويسير في الحقول، ويتكلم عن الانتحار ويمتدحه، وقد حفظ الأشعار التي يقولها «هاملت» عندما كان يمتدح الموت، فلم يسأله أحدٌ من إخوته أو والديه إلى أين يذهب؛ لأنهم تَعَوَّدُوا منه الخروجَ والسير على انفرادٍ بعد العشاء.

ولكن بعد ساعات وجد كالاس أنَّ ابنه قد خنق نفسه بحبل معلق من سقف الباب، وكان قد خلع ملابسه ووضعها قريبًا منه، وهي مرتبة مطبقة.

وكانت العادة أن المنتحر يحرم من صلاة الموتى، ويُجر على وجهه إلى خارج المدينة؛ كي تأكله الوحوش والجوارح، وخشي كالاس هذه الفضيحة، فوقف هو وأعضاء العائلة يتكلمون في كيفية دفن الجثة بدون التعرض لهذا العار، ولكن أحد الجيران شعر بالحركة، وسمع رشاشًا من الكلام يدل على الحادثة فأبلغ الشرطة.

وقبض الشرطة على جميع أفراد العائلة، وتفشَّت في البلدة إشاعةٌ مؤداها أن عائلة كالاس قد قتلت الشاب البريء الطاهر مرقس؛ لأنه أراد أن يدخل في حظيرة الكاثوليكية، ويفر من رجس البروتستانتية الذي يعيش فيه أبوه وإخوته.

وأصبح مرقس شهيدًا على الرغم منه، وحُملت جثته وبقيت في قاعة المدينة العمومية ثلاثة أسابيع، والناس يزورونها، ويترحمون على هذا المسكين الذي ذهب ضحية إيمانه، والكل مجمِع أن الأب قد خنق الابن، مع أن الأب كان عمره ٦٣ سنة وكان عمر الابن ٢٨ سنة.

وبعد خمسة أشهر تألفت المحكمة لمحاكمة العائلة، وحكمت على كالاس بالتعذيب، ثم بتمزيقه على الدولاب، وأُدْخِلَ غرفة التعذيب، وعُلِّقَ بمعصميه من سقف الغرفة حتى

صار على ارتفاع متر من الأرض، ثم جُذِبَ إلى الأرض من رجليه حتى خرجت رجلاه وذراعاه من محاجرها. وأُنزل بعد ذلك، ثم أُجْبِرَ على أن يشرب مقدارًا كبيرًا جدًّا من الماء، حتى صار جسمه ضعفي ما كان قبلًا، كل ذلك وهو يُسأل عن الجناية فينكرها.

وأخيرًا حُمل إلى مكان القتل، فقطع الجلاد رجليه ويديه، وعندئذ جاءته أبالسةٌ من بني آدم يقال لهم: قضاةٌ، يسألونه هل ارتكب الجناية فينكر، حتى ضج القضاة من عناده، وأشاروا على الجلاد بخنقه، فاستراح المسكين من شياطين الإنس.

وكانت أملاكه قد استُصفيت، وخرجت أرملته لا تجد القوت، وأُخذ أولاده فوُزعوا على الأديار؛ لكي ينشئوا كاثوليكيين، وتزداد بذلك رعية البابا.

وكان فولتير مقيمًا بجنيف، فسمع بخبر هذه الكارثة التي نزلت بأسرة كالاس، فاستقصى وتحرى فوجده صحيحًا بكل فظاعته، فلم يعد يفكر في شيء في هذه الدنيا غير هذه الكارثة.

رأى فولتير أن وقوع هذه الكارثة اعتداءٌ على مملكته؛ فقد كان أمينًا على حرية الفكر، يدافع عنها في جميع أنحاء أوروبا، فأخذ يُكاتب جميع من لهم نفوذ في فرنسا لإعادة المحاكمة، وحمل الأرملة المولهة إلى باريس حيث عيَّن لها محاميًا مشهورًا، وجمع الشهود من الجيران، وأنفق من ماله بلا حساب، وكاتب ملك إنجلترا وإمبراطورة روسيا وأجبرهما على التبرُّع بشيء من نفقات الدعوى، ثم التفت إلى فرنسا، فعبَّأ الرأي العام، وجنَّد قلوب الأمة بكتاب جمع فيه الأدلة التي تُبَرْهِن على الظلم الذي وقع بهذه العائلة، ونشره غفلًا من اسم المؤلف.

وبعد تسعة أشهر — وصوت فولتير تتجاوب أصداؤه القوية في جميع أنحاء أوروبا: «اسحقوا أهل الخزي»؛ رضيت الحكومة الفرنسية بإعادة المحاكمة، ومضى عام آخر نطقت في نهايته المحكمة ببراءة كالاس الذي قتله قضاةُ تولوز بعد أن أنزلوا بجسمه الضعيف صنوفًا من العذاب.

وفُصل هؤلاء القضاةُ السفلةُ من مناصبهم، وتضمَّن الحكم نصيحة خفيفة الملمس لأهل تولوز بأن مثل هذا الحادث يجب ألا يتكرر، وبعد ذلك وهب الملك هذه العائلة التي أشقاها التعصب هبة صغيرة من المال.

هذه قضية واحدة من أكثر من عشر قضايا تطوع لها فولتير، ودافع فيها بقلمه وماله عن المظلومين المضطهدين، ومات وهو في الرابعة والثمانين من عمره، مهدود القوى، قد أقعده المرض وألزمه الفراش.

ومع ذلك كانت له قضية يدافع فيها عن شاب قد اتُّهم بتحطيم صليب وبحيازة المعجم الفلسفي، وبأنه لم يركع عند مرور موكب ديني. وكان الشاب قد أحرقته المحكمة، وانتهت منه بعد أن قطعت لسانه بالحديد المحمي، ثم قطعت ذراعه اليمنى، ثم أحرقته هو والمعجم الفلسفي.

وهذا المعجم من مؤلفات فولتير، ولكن فولتير نبش القضية، وأخذ يعرض تفاصيلها قطعة بعد قطعة على الرأي العام الفرنسي؛ حتى يقف الناس على هذا الظلم الصارخ الذي يوقعه الأغبياء بالأذكياء، مستعينين في ذلك بالقوانين والظلَّام. وهكذا انتهت حياة فولتير، وهو في ميدان المعمعة، بعد أن أبلى أشرف بلاء في سبيل الحرية الفكرية.

وهذا الرجل المكافح المقاتل من أجل الحرية كان مع ذلك يندى قلبه بندى المروءة إذا أحس بضعيف يتألم، أو إذا مُدَّتْ إليه يد المعدم تطلب الصدقة، فقد ذكرت عنه وكيلة بيته أنه غضب مرة من خادمة وأمر بطردها؛ ولهذا الغضب حكاية مضحكة تدل على مزاجه الفرنسي وزهوه، فقد كان عنده عقاب نحيل قد بان عظمه، فسمع فولتير الخادمة تقول: إنه يحسن بهذا العقاب أن يموت؛ لأن هزاله قد بلغ منه، وكان فولتير نفسه من حيث نحول الجسم وهزال الأعضاء مومياء مجففة، ووقعت إشارة الخادمة منه وظنها تلمح إلى شخصه، فأمر بطردها، ولكن وكيلة البيت رفضت، واعتمدت في ذلك على أنه إذا سألها عن علة بقاء الخادمة فإنها تقول: إنها طردتها، ولكنها لما لم تجد عملًا تعيش منه عادت إليهم، وعندئذ يفيض قلب فولتير بما طبع عليه من بر فيسكت؛ لأنه لا يطيق أن يسمع أن أحدًا يقول: إنه لا يجد ما يقتات به.

وحدث أنه وقع على خيانة اثنين في منزله، ونزل كلاهما على الأرض يركعان له حتى يغفر لهما هذا الذنب، وهما يرتجفان من العقاب، فركع هو في الحال على الأرض أمامهما وأنهضهما، وعيناه تفيضان بالدموع، وهو يقول لهما ألا يركعا إلا لله وحده.

أجل، إنه بمثل هذا الرجل يتطور الناس.

الثورة الفرنسية

أخبرُ الناس بالثورات وأعرفُهم بطبيعتها هم الروس؛ ولذلك يجب أن نعرف الثورة هنا بقلم أحد كتَّاب الروس الذي يقول عن تجربة واختبار:

> الثورة هي قلبٌ سريعٌ، يحدث في سنوات قليلة للمؤسسات التي امتدت جذورها في التربة عدةَ قرون، والتي يبدو لمن ينظر إليها أنها ثابتة لا تتزعزع، حتى إن أشد المصلحين حماسة لا يكاد يجسر على مهاجمتها بالكتابة. وهي سقوطٌ وتهدُّم يحدثان في فترة صغيرة لجميع ما كان يعد إلى ذلك الوقت أصلًا لحياة الأمة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية.

وهذا التعريف ينطبق على الثورة الفرنسية كل الانطباق، وليس من شأننا هنا أن نذكر تاريخ الثورة، وإنما نحن نمس منها ما له علاقةٌ بحرية الفكر التي هي موضوعُ هذا الكتاب. ولهذه الثورة إرهاصات أنبأتْ عنها، وكان يمكن للحكيم أن يتوقع الثورة منها لولا غشاوات الطمع والكسل والجهل والجبن، التي كانت تحجز نور الحقائق عن عيون الطبقة الحاكمة في فرنسا.

فقد قضى فولتير حياته، وهو يهدم سلطان التعصب، ويُشنِّع على استبداد الحكومة وظلمها، وقضى روسو حياته وهو يُبدي ويعيد في نظرية واحدة، وهي أن طبيعة الإنسان طيبة، وإنما أفسدها الحكومات والشرائعُ، وكان مونتسكيو في «روح الشرائع» يدعو إلى اصطناع الدستور الإنجليزي بدلًا من الأنظمة الفرنسية البالية. وكان رجال «الموسوعة» لا يفتئون يذكرون في كل حرف من حروف المعجم أساليب الظلم، التي تنزل بالناس من أشرافهم وأمرائهم كما يذكرون الأساطير الأولى التي يؤمن بها الناس

ويحسبونها من الدين. فكُتُب هؤلاء الكُتَّاب هي خميرةُ الثورة التي هيأتْ لها تربتهم وزوَّدَتْها بما يخصبها.

وليست الثورة الفرنسية فرنسية إلا بالاسم، أما حقيقتها فعالمية، وأنت — أيها القارئ المصري — لو قرأت الدستور الذي وضع لمصر في سنة ١٩٢٣ لوجدت عليه مسحة «حقوق الإنسان» التي أعلنتها الثورة سنة ١٧٨٩، ووجدت فيه ألفاظًا وعبارات تنم على هذا الأصل، وكذلك الحال في سائر دساتير أوروبا فإنها مُشَبَّعَة بروح الثورة الفرنسية.

وفي الثورة الفرنسية عقل وهوس.

أما العقل فهو هذا:

(١) ذهب الرعاع سنة ١٧٨٩ إلى سجن الباستيل فهدموه، وكان الناس يُسْجَنُونَ في هذا السجن بلا محاكمة، وقد لا يعرفون أحيانًا التهمة التي سُجنوا من أجلها، وبهدم الباستيل وخَنْق وكيله انهدم ركنٌ كبير من الاستبداد.

(٢) اجتمعت الجمعية العمومية سنة ١٧٨٩، وأعلنت حقوق الإنسان، فقضت بذلك على الحكم الإقطاعي، وأهم ما في هذه الحقوق: (١) أن جميع الناس يستوون أمام الشرائع. (٢) لا يمكن تبرير امتياز فرد على فرد إلا لمصلحة المجموع. (٣) لكل فرد أن يشترك بنفسه أو بنائبه في وضع الشرائع. (٤) يجب أن تحمل الأعباء الوطنية بنسبة قدرة الفرد على حملها. (٥) لا يُسْجَن أحد إلا بحكم محكمة طبقًا للقوانين. (٦) حرية اختيار الدين وحرية الخطابة والصحافة من حق كل وطني.

أما الهوس فهو هذا: إلغاء التقويم المسيحي، وابتداء تقويم جديد من السنة الأولى من الثورة، وإلغاء الأعياد المسيحية، وتقسيم الشهر إلى ثلاثة أقسام كل قسم عشرة أيام، وإلغاء عبادة الله، واختراع عبادة جديدة «لربة الذهن».

وكل هذا الغلو والشطط يرجع إلى ما لاقاه الفرنسيون قبيل الثورة من استبداد رجال الدين والحكومات.

ففي سنة ١٧٩٤ حُملت راقصةٌ جميلة إلى كنيسة نوتردام، وأُلبست لباسًا تشبه فيه ربة الذهن الإغريقية، ثم عبدها الباريسيون في مكان أمامها بالكنيسة سموه «معبد الفلسفة» وكانت النية على أن يُقام تمثال لربة الذهن من المرمر، ولكن نوبة الهوس انتهت قبل أن يشرع في صنع التمثال.

ومضى الباريسيون على هذا الهوس نحو ستة أشهر، أعلن في نهايتها — أي في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٧٩٤ — أن الله قد رُد باحتفال رسمي إلى مكانه في كنيسة نوتردام.

ويجب أن نذكر من هوس الثورة أيضًا أن ١٤٠٠ رأس أطاحتْها المقصلة بلا ذنب أو ذنوب طفيفة.

ولكن بعد كل ذلك هدأت العاصفة، وعرف الناس قيمة التسامُح، وصار لأحرار الذهن أن يعيشوا ويُجاهروا بآرائهم أمام المسيحيين أو اليهود.

توم بين

وُلِدَ توم بين بإنجلترا سنة ١٧٣٧ ومات بأميركا سنة ١٨٠٩.

وَيُعْرَفُ «بين» بكتابين أولهما «الفهم» وثانيهما «عصر العقل» وكلاهما يعمل للحرية الفكرية؛ فالأول: حملةٌ عنيفةٌ على مبدأ الملوكية ودعوة إلى الأميركيين؛ لكي ينفصلوا من إنجلترا، ويؤسسوا جمهورية لا شأن لمبدأ الملوكية الوراثي فيها، وقد كان لهذا الكتاب أثرٌ كبير في الثورة الأميركية.

أما الثاني: فحملة عنيفة أيضًا على الأديان.

وله كتاب ثالث أقلُّ أهمية عنوانه «حقوق الإنسان» وضعه في الدفاع عن الثورة الفرنسية وعن المبادئ الجمهورية، وقد حاكمتْه المحاكم الإنجليزية لحملته على الملوكية، وهذه بعض العبارات التي حوكم من أجلها:

كل حكومية وراثية تكون بطبيعتها ظالمة.

وأيضًا: «لن يكون الوقت بعيدًا عندما تضحك إنجلترا من نفسها لاستجلابها واحدًا من هولندا أو هانوفر أو زل أو برونزويك — يقصد ملوك إنجلترا الأجانب — تنقده في العام مليون جنيه، وهو لا يفهم شرائعها ولا لغتها ولا مصالحها، وقد لا يجد من كفايته ما يستطيع أن يؤتمن به على أن يكون شرطيًّا في إحدى القرى.»

وقد حكمت المحاكم الإنجليزية على «بين» بإهدار دمه، ولكنه كان في ذلك الوقت في فرنسا.

أما في حملته على الأديان فكان موقفه فيها يشبه موقف فولتير.

كان يؤمن بالله، ولكنه لهذا الإيمان نفسه كان يكبره عن أن يكون هو صاحب الأساطير التي تُعْزَى إليه في بعض الكتب، فهو يقول: «عندما نتأمل عظمة هذا الكائن،

وهو يتسلط على هذا الكون الهائل الذي لا يكشف منه فهم الإنسان إلا جزءًا صغيرًا؛ نشعر بالخجل عندما نجد أن قصصًا سخيفة تُنسب إليه، ويُقال عنها: إنها كلمة الله.»

ويمكن أن يُقال: إنه كان يؤمن «بدين الإنسانية» أي الدين الفلسفي الذي يؤمن به صاحبه مضطرًّا بدواعي نفسه لا بأوامر سلطة خارجية، وكان يقول: إن لهذا الدين عدوين هما: الإلحاد والتعصب.

وفي الوقت الذي قَدَّرَ فيه الوطنيون الفرنسيون خدمته للثورة، وانتخبوه عضوًا في الجمعية، وهو لا يدري كلمة من الفرنسية، سقطت منزلته عند الأميركيين، حتى إنه عندما عاد إليهم اجتنبوه واتهموه بالإلحاد.

القرن التاسع عشر

القرن التاسع عشر هو القرن الذي استقرتْ ورسختْ فيه الحرية الفكرية؛ فإنه وُلِدَ في حجر الثورة الفرنسية، التي شرعت تنكر كل التقاليد الدينية، وتخترع الآلهة اختراعًا، فلما بلغ منتصف عمره أعلن داروين للناس أن الإنسان لم يكن عاليًا فسقط، بل كان ساقطًا فتطور وارتفع.

واتسم القرن التاسع عشر بثلاث نزعات تأيدت بها الحرية الفكرية:

(١) تمرد العمال في جميع الأقطار الأوروبية، وتفشى بينهم النظر الثوري في أحوال معيشتهم، وتعدى هذا النظر أحوال المعيشة إلى أحوال الضمير، فنزعوا إلى الحرية في الدين، ولا تزال الأوساط الاشتراكية للآن أبعد الأوساط غلوًّا في الحرية الدينية، والعبرة بالنزعة على الدوام، فإذا ما نزع المرء إلى الحرية في النظر الاقتصادي أو الاجتماعي فإنه لا بد نازع أيضًا إلى الحرية في النظر الديني.

(٢) أقبل العلماء على درس العلوم بشراهة وإدمان، وكان للبيولوجية؛ أي العلم الخاص بالأحياء، وللجيولوجية؛ أي العلم الخاص بتكوين قشرة الأرض والأحافير؛ أثر خاص في ترويج الحرية الفكرية.

(٣) تحوَّل درس كل الكتب المقدسة من الإيمان والتسليم إلى النقد والتمحيص بمقابلة التواريخ والتنقيب عن الآثار.

وفيما يلي سنُلقي نظرة سريعة على حوادث القرن التاسع عشر التي تمس الحرية الفكرية، أو تتعلق بها بأدنى علاقة.

ففي أوائل القرن نجد أن لابلاس — الذي مات سنة ١٨٢٧ — يعرض على نابليون نظرية، يقول: إنه يمكن أن يُستغنى بها عن فرض وجود إله خالق، ولكن نابليون،

وإن كان قد تشبع بروح الثورة الفرنسية؛ فإنه عندما رسخت أصول الإمبراطورية أصبح ينظر للدين نظر أصحاب الدول والسلطان؛ ولذلك رد لابلاس أقبح رد، ولكن اقتراح لابلاس يدل على الروح التي سرتْ بين رجال الذهن في فرنسا، والتي بَعُدَتْ بُعْدًا عظيمًا عما كان سائدًا فيها أيام فولتير.

وفي سنة ١٨٦٣ أَلَّف ليال كتاب «قدم الإنسان» أوضح فيه أن الإنسان قديمٌ، يرجع تاريخه إلى مئات الألوف من السنين، كما تُثبت ذلك الجيولوجية، وقد كان أبعدَ الناس تقديرًا لتاريخ الإنسان على الأرض — حسب ما تقولُه التوراة — لا يبعده أكثر من ٦٠٠٠ سنة.

وفي سنة ١٨٥٩ ثم في سنة ١٨٧١ وضع داروين كتابيه عن نظرية التطور: الأول في أصل الأنواع، والثاني في أصل الإنسان، ولم يكن أحدٌ يشك في أن نظر داروين يختلف عن النظر الديني اختلافًا في الأُصول والمبادئ، حتى قال الأسقف ولبر فورس: «إن مبدأ الانتخاب الطبيعي يخالف كلمة الله.»

وفيلسوف التطور هو — بلا شك — هربرت سبنسر؛ فإن داروين قصر نظره على تطور الأحياء الذي يؤدي اختلاف الأفراد فيها إلى ظهور السلالات، ثم يؤدي اختلاف السلالات فيها إلى ظهور الأنواع.

ولكن سبنسر أخذ النظرية وعَمَّمَها على العمران والعادات والأخلاق، وصبغ عالم المفكرين في أوروبا كلها بهذه الصبغة، ومن الحق أن نقول الآن: إن تعميم نظرية التطور إنما يرجع إلى علماء الإنجليز، وخاصة إلى داروين وسبنسر.

وما هو أن عمَّت النظرية حتى كان علماء آخرون يطبقونها على الديانات نفسها، ويرصدون حياتهم للبحث عن أصل السحر والعقائد الدينية القديمة، مثل التثليث عند المصريين القدماء وغيرهم، ومثل نظرية الفداء وتجسم لحم الآلهة في الغلات الزراعية ونحو ذلك، وكتاب فريزر في هذا الموضوع المسمى «الغصن الذهبي» من أفضل وأعمق نتائج هذا الدرس.

وكان لتقدُّم العلوم البيولوجية أثرٌ كبير في زعزعة العقائد الموروثة؛ لأنه ظهر منها أن جسم الإنسان بعيدٌ عن الكمال، بادي النقص والخلل، بما ورثه من أعضاء كانت تنفعه وهو بعد في طور الحيوان، وأصبحت الآن تؤذيه مثل الزائدة الدودية والقولون وغيرهما، حتى قال هلمهولتز العالم الألماني — الذي مات سنة ١٨٩٤ — عن عين الإنسان: «لو أن أحد صُنَّاع النظارات أرسلها إلي باعتبارها آلة لرددتها إليه، ووبخته على عدم عنايته بعمله، وطلبت منه رد نقودي.»

والقرن التاسع عشر حافلٌ بأسماء العلماء والفلاسفة، الذين حاولوا تفسيرَ الكون بدون الرجوع إلى العقائد، مثل شوبنهور وكونت وسبنسر، وفي أواخر هذا القرن نظمت في إنجلترا «جمعية الدهريين» وشرعت تطبع الكتب العلمية والتاريخية، ويقال: إنها قد باعت من مؤلفاتها نحو ثلاثة ملايين نسخة كلها في مقاومة الأديان.

وقلما نجد في القرن التاسع عشر حادثةَ اضطهادٍ لحرية الفكر تستلفت النظر؛ فإن الحكومات أخذتْ أمام حملة العلماء تنكفئ وتزدجر، وكانت الاضطهاداتُ السابقة والحروب الدينية لا تزال ماثلةً بنتائجها المرعبة وعِظَاتها البالغة، ولكنا مع ذلك نسمع عن حادثة لو أنها ذُكرتْ قبل هذا القرن لعُدَّتْ طفيفةً، ولكنها كانت خطيرة في وقتها للتقدُّم الذي أحرزتْه الحرية الفكرية.

ففي سنة ١٨٨٨ انتُخب رجل دهري يُدْعَى «برادلف» عضوًا في مجلس العموم البريطاني، وكانت العادة أن يُقسم بالله يمين الولاء، ولكن برادلف لم يكن يؤمن بالله، ورفض أن يقسم هذه اليمين، فحبسه البرلمان ثم ألغى انتخابه، فعاد إلى دائرته، فانتخبتْه ثانيًا، فخضع البرلمان عندئذ، وأذن للدهريين في أن يقسموا اليمين التي يشاءُونها.

وكانت العادة أن ملوك إنجلترا لا يُتَوَّجون إلا إذا سَبُّوا البابا والكاثوليك، فلما ارتقى إدوار السابع محا هذا السباب من حفلة التتويج، وكان الكاثوليك يحرمون من مناصب الدولة في إنجلترا، فأُلْغِي أيضًا هذا التحريم، وكان الزواج يُعْقَدُ في الكنائس على أيدي الكهنة، ولكن الأمم الأوروبية قررت اعتباره عقدًا مدنيًّا.

وما جاء القرن العشرون حتى أخذت أمم كثيرة تفصل الكنيسة عن الحكومة، وبعضها — مثل فرنسا — عمد إلى الاضطهاد، فاستصفى أملاك الكنيسة، ومنع التعليم الديني في المدارس.

الجزء الثالث

في تبرير الحرية الفكرية

في تبرير الحرية الفكرية

النهضة الفكرية الحاضرة في مصر ترجع إلى عهد إسماعيل، ولا يكاد يكون لها علاقة بنهضة محمد علي؛ إما لأن نهضة محمد علي كانت ناقصة في ذاتها — كسقط الإجهاض — لم تستقرَّ فيها عواملُ النمو، قائمة على أفراد من الشركس والأتراك، وإما لأن عباس وسعيد قد قطعا الصلة بين نهضة محمد علي وبين نهضة إسماعيل.

وسواء أَصَحَّ هذا أم ذاك؛ فإن الواقع أننا نرى أُسس النهضة الحاضرة تُقام في عهد إسماعيل، ففي عهده ظهرت الصحف، وكان الشيخ محمد عبده والأفغاني يتكلمان عن إصلاح الأزهر والحكومة.

وكِلا الرجلين جديرٌ بالذكر في كتابنا هذا؛ فقد حاول كلٌّ منهما أن يوجِد اتصالًا بين الشريعة والحكومة، ويبدو من ذكريات رينان المطبوعة أن الأفغاني كان ملحدًا، ولكن الذين عاشروه في مصر يعتقدون غير ذلك، وقد كتب هو نفسه عن نظرية داروين ما يثبت نظره الديني المحض.

أما الشيخ محمد عبده فمعروفٌ في مصر بجهاده للحرية، وقد حاول إصلاح التعليم الديني، وبلغ منه شأوًا عظيمًا، وإن لم يحقق جميع أغراضه، وكان مما يهتم له أن يمسح على المعاني القرآنية روح العصر الحديث؛ فقد فسر مثلًا الطير الأبابيل — المذكورة في سورة الفيل — بأنها ميكروبات نزلت بالناس فأحدثت المرض الذي فتك بهم، وأن السماوات السبع هي ضرب من الكواكب ونحو ذلك، ولقي الشيخ محمد عبده عنتًا عظيمًا من علماء الأزهر؛ لاجتهاده ومخالفته المأثور.

ويُعد قاسم أمين في طليعة العاملين للحرية في مصر؛ فقد تربى بأوروبا، واشتغل بالقضاء في مصر، ثم قابل أحوال العائلة عندنا بما هي عليه في أوروبا، وعزا ضعف الأخلاق والجهل الفاشي بين الناس وسوء التربية المنزلية إلى حجاب المرأة، فدعا إلى

السفور، وأنكر أن الإسلام يحتم حجاب المرأة، وقد أحدثت دعوتُه ضجة كبرى بين المصريين حينئذ، ولكننا نعرف الآن حكمة هذه الدعوة، ونشعر أن كل يوم يمر على امرأة مصرية محجبة هو يوم لا يكسب من حياتها، وهو خسارة على الأمة بأجمعها، ومن الغريب أننا سبقنا الأتراك إلى القول بحرية المرأة، وسبقونا هم إلى العمل بها.

ومنذ خمسين سنة تقريبًا ترجم فرح أنطون كتاب رينان عن المسيح، واشتبك مع الشيخ محمد عبده في جدال بشأن الحرية الفكرية في الإسلام والنصرانية، وقد انتفع قُرَّاء العربية بكلا هذين العملين من حيث استضر بهما فرح؛ فإن رينان ترجم لحياة المسيح كأنه إنسانٌ لا يمتاز عن سائر الناس إلا بخلُقه العظيم، وذكائه الحاد، ونفسه الوديعة، فكانت هذه الترجمة كشفًا جديدًا بشأن الحرية الفكرية، فقد سار فيه فرح أنطون شوطًا بعيدًا في كتابه «ابن رشد وفلسفته» وأظهر القرَّاء على الاضطهادات الدينية القديمة، سواء من النصرانية أم من الإسلام.

وفي هذه السنين أيضًا كان المقتطف يلقي في أذهان القرَّاء نظرية التطور، ويبدي ويعيد فيها شهرًا بعد شهر، حتى أُشربت عقول طائفة كبيرة منهم بهذه النظرية، فتجرأ الناس بذلك على نقد الأساطير.

ولما احتلت بريطانيا مصر، وجعلت اللورد كرومر عميدها فيها؛ استبحرت الحرية الفكرية في البلاد، حتى كانت مصر مَحَطَّ بعض المضطهَدين، وكان اللورد كرومر رجلًا مثقفًا بالثقافة الإغريقية، يشق على مثله أن يقيِّد الأفكار الحرة، ولكن جاءت بعده طائفةٌ من الجنود والسياسيين كانوا بعيدين عن الثقافة، فَضُيِّقَ في عهدهم على الصحف المصرية، حتى كانت المجلة العلمية لا يؤذن بإصدارها إلا بعد تحريات واستقصاءات، قد ينتهي عزم صاحبها وَهَنًا وسأمًا قبل أن تنتهي الإجراءات الخاصة بالإذن له بإصدارها.

ومن القيود التي تغل الحرية الفكرية أيضًا منع تمثيل أي درامة على المسرح ما لم تقرها الحكومة، فإذا وجدت أية إشارة تعتقد أنها تخالف ما تحب من آداب أو أديان أو أنظمة منعت الدرامة من التمثيل.

ومن أقرب حوادث الاضطهاد الديني في مصر حادثة الشيخ علي عبد الرازق؛ فقد كان عالمًا من علماء الأزهر، وقاضيًا شرعيًّا، فوضع كتابًا عن الخلافة قال فيه: إنها ليست أصلًا من أصول الإسلام، وإن الخليفة حاكمٌ مدنيٌّ لا غير، فعوقب على هذا الكتاب بتجريده من العالمية، وفصله من المحاكم الشرعية.

وحدث قبله أن الدكتور منصور فهمي وضع كتابًا بالفرنسية عن حياة الإسلام، فمُنع من التدريس بالجامعة أكثر من سبع سنوات.

كذلك وضع الدكتور طه حسين كتابًا عن «الشعر الجاهلي» خالف فيه العقائد الشائعة، فحاول العلماء أن يمثلوا معه الفصل الذي مثلوه مع الأستاذ علي عبد الرازق.

وخدمت مصر الحرية الفكرية في الشرق كله بمطبوعاتها وصحفها، ونبغ فيها كتَّاب يدعون إلى حرية البحث في الدين والعلم والأدب، وربما كان أبعدهم أثرًا في ذلك منذ بدء النهضة إلى الآن شبلي شميل وفرح أنطون؛ فإن الأول كان يُجاهر بكفره، ويسطو على رجال الدين متسلحًا بنظرية التطور.

وكان الثاني أديبًا له مدخلٌ لطيف إلى قلوب الشباب، كتب عن نيتشه، وعن الثورة الفرنسية، وعن المسيح باعتباره رجلًا، وعن الاضطهاد الديني، وكان في تجديده للأدب العربي جريئًا مقدامًا، يشق الميادين الجديدة، ولولا أنه دخل في غمار السياسة، ودار في إعصارها لانتفع به الأدب العربي كثيرًا.

لا يبرر الحرية الفكرية سوى منفعتها، ولا يبرر تدخل الحكومة ومنعها للناس من حرية التفكير سوى حقها في الدفاع عن النفس، وحماية الجمهور من أذًى مباشر، أما إذا كان الأذى مقدرًا في المستقبل البعيد فلا يصح للحكومة أن تتدخل، فليس للحكومة، مثلًا، أن تمنع خطيبًا يتكلم عن فوائد الاشتراكية وأفضليتها للنظم الحاضرة، ونحو ذلك، ولا يمكنها أن تعتمد في منعه على: أن لهذا الكلام أثرًا في أذهان السامعين، قد يدعوهم إلى الهياج في يوم ما.

ولكن لها أن تتدخل إذا وقف هذا الخطيبُ ودعا الناس إلى الثورة على الأغنياء، وطَرْدِهم من دورهم، والاستيلاء على أملاكهم؛ لأنه في الحالة الأُولى يشرح نظامًا ويقابله بالنظام الراهن، ويقول بأفضليته عليه، ولكنه لا يحض الجمهور على التسلُّح، ومفاجأة الناس بالثورة.

وإذا كانوا هم قد اقتنعوا بصحة النظام الجديد الذي شرحه لهم، وفساد نظامهم؛ فلهم من برلمانهم بابٌ لتحقيقِ هذا النظام، ولا يمكن أن يحمل الخطيب تبعةَ هياجهم.

أما في الحالة الثانية فالدعوة إلى الهياج صريحةٌ، والجمهورُ ينقاد إلى الخطيب المهيج، ويستأنس بألفاظه العالية، كما يستأنس القاتل بسيفه، فهو هنا مسئول عن الهياج، والحكومة مطالَبةٌ بمنعه.

ويشق علينا أن نميز بين الحالات التي يؤدي فيها هذا التفكير الحر إلى الهياج المباشر الصحيح وبين تلك الحالات الأُخرى التي لا يؤدي فيها إلى ذلك، ولنضرب عدة أمثلة:

فهناك مثلًا خطيبان مرشحان للنيابة عن دائرة انتخابية في البرلمان، أحدهما له كثرةٌ ساحقة، فمهما خطب وأسرف وطغى في خطابته لا يجد من يناقضه، ولكن منافسه له قلة صغيرة جدًّا، فإذا نطق بكلمة عُدَّتْ كُفرًا، أو أثارتْ حوله ضجة وهياجًا، ففي هذه الحالة نجد أنه، وإن كانت كلمات هذا الخطيب تحدث هياجًا إلا أننا نرى الحكومة مطالَبة بحمايته هو، ومنع الهائجين من هياجهم؛ لأنه إنما يتكلم عن قلة، ولهذه القلة الحق في شرح آرائها، والذود عنها، وإن كان في هذا إغضابٌ عظيم للكثرة.

وهناك مثلًا درامة تمثل على المسرح، يشرح أحد أشخاصها مساوئ نظام الزواج الراهن، أو حجاب المرأة، أو نحو ذلك، وقد يستثير بمناظره هياجًا بين النظارة، ولكن الحكومة مطالبة مع ذلك بمنع الهائجين، وإلزامهم السكوت، وليست مطالبة بمنع التمثيل.

ففي كلتا الحالتين نجد هياجًا مباشرًا، أساسُهُ خطبة الترشيح للنيابة وأقوال الممثلين، ولكن هذا الهياج غيرُ قائم على أساس صحيح؛ لأن الجمهور الهائج ناقصُ التربية، يستند إلى أغلبيةٍ أو تقاليد مغروسة، وتأديبه وإلزامه السكوت واجب؛ حتى لا تستبد الكثرة بالقلة.

ويمكن أن يُقال لذلك الجاهل الذي لا يستطيع ضبط نفسه: خففْ عنك ورَفِّهْ، ولا تحاول الذهاب إلى دار التمثيل، أو إلى حيث تَسمع تلك الخطبة التي تكرهها.

وليس ينكر أن للحرية الفكرية مضارَّ، ولكن ليس شيء في العالم تُجْنَى منه فائدة دون أن يكون له ضرر، وضررها هذا لا يمنع الناس من الانتفاع بها، فقد يقف خطيبٌ مفتونٌ مهووس يعتقد أن الوحي قد نزل عليه، وأن قيام الساعة قد أزف، فيحمل الناس على ترك أعمالهم، بل على الانتحار تعجُّلًا للساعة، وقد يطيعه بعض المفتونين في ذلك، وقد فعل المهدي السوداني شيئًا شبيهًا بهذا، وجعل من السودان جحيمًا أكثر من عشر سنوات.

ولكن هذه حالات شاذة، إذا تفاقمت، ورأت الخاصة في الأمة أن الأذى واضح؛ لجأت عادة إلى ما تلجأ إليه عند غارة أحد الأمراض الوافدة، كالكوليرا؛ بوقف الشرائع، وإعلان الأحكام العسكرية.

وإنما استقر المفكرون على ضرورة الحرية الفكرية، وعلى ضرورة التسامُح فيما يحدث منها من الأضرار ما دامت هذه الأضرار غير فادحة؛ لأنه ثبت أن هناك آراء مُنِعَ الناس من القول بها كانت صحيحة، وكان المانعون أنفسهم هم المخطئين، وهذا

هو المعقول؛ لأن السلطة التي تمنع الناس من البحث في رأيٍ ما مؤلفةٌ من أشخاص معرضين للخطأ، وليس أحدٌ منهم معصومًا منه.

وثبت أيضًا أن العلوم والفنون التي تملَّصت من قيود العبودية تقدمت وأثمرت، كما نرى الآن في الكيمياء والطبيعة والطب والميكانيكيات، فإن تقدم الصناعة إنما يعزى إلى تقدُّم هذه العلوم، كما أن رُقِيَّ الحضارة نفسها يرجع إليها.

وقد يكون هناك مجال للشكوى من سرعة تقدُّم هذه العلوم لا من تأخُّرها، ولكن العلوم العمرانية والأخلاقية والشرعية والدينية كلها لا تزال متأخرة؛ لأن الناس ليسوا أحرارًا في الكلام عنها ومناقشتها، فنحن إذا قابلنا علم الكيمياء اليوم بما كان عليه أيام سليمان الحكيم لَوجدنا فرقًا هائلًا يكاد يكون كالفرق بين الطفل الذي يلعب بالنار وبين معارف مهندس يدير قاطرة، ولكن الفرق بيننا وبين سليمان الحكيم في الآراء الدينية أو الأخلاقية أو حتى العمرانية؛ لا يزال صغيرًا جدًّا، أو قد لا يكون هناك فرق أصلًا.